

رسائل من سورية

وجدان ناصيف



رسائل من سورية

وجدان ناصيف

رسائل من سورية

سلسلة شهادات سورية -13- رسائل من سورية
وجدان ناصيف

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: مناف عزام
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى - 2015
ISBN: 978-9953-583-59-4

تمت طباعة هذا الكتاب بدعم من المنظمة
الأورو - متوسطة لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا
الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو،
أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو
بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماتاً.

الناشر:

بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق - الجمهورية العربية السورية
هاتف: +961 78840213
بريد إلكتروني:

baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:

أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا - بناء رسامي
ص.ب: 6435 / 113 بيروت - لبنان
هاتف: +961 1 750054
فاكس: +961 1 750053
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

الإهداء

لأنها منكم، إليكم أهديتها،
بأسمائكم المستعارة، وذاكرتكم الحقيقية حد الفجيرة
إليكم، وإلى الذين سقطوا خلف كاميراتهم كي يحفظ العالم
تلك الذاكرة المُعدّة للنسيان.
إلى تلاميذي وبناتي وأبناء جيلهم..
سنظل نحلم ببلادٍ حرةٍ جميلةٍ كما تستحقونها.

في آذار 2012 بدأت بكتابة هذه الرسائل باسم مستعار: «جمانة معروف»، وكانت تُنشر دورياً على مدى عامين وأكثر في «بلوج»: «عين على سورية Un oeil sur la Syrie»¹.

كانت الرسائل مجرد محاولة لإيصال ما يحدث في سورية، وتحديدًا في العاصمة دمشق وريفها، إلى العالم. وكانت أيضاً محاولة للإجابة عن سؤال ملحّ ويومي: ما حقيقة التطورات التي حدثت للمجتمع السوري خلال الثورة؟! وقد كتبت هذه الشهادات من زاوية نظري، ومن زاوية نظر أصدقائي القريبين، وأتمنى أن أكون قد نقلت شهاداتهم بأمانة.

في النصف الثاني من عام 2013 فوجئت برغبة Jean François Delage، من «بوشي شاستيل - سلسلة الوثائق / Buchet Chastel Collection Document»، في جمع الرسائل ونشرها في كتاب. أُصدر الكتاب في نيسان 2014 تحت اسم: «رسائل من سورية / Lettres de Syrie»، وحمل اسم «جمانة معروف» مؤلفة للكتاب.

مع خروجي من سورية في نهاية شهر أيار 2014 كنت قد أكملت إرسال مئة وخمسين رسالة تُرجمت إلى الفرنسية، ونشرت في الموقع الذي ذكرته. وكانت تقوم بترجمتها صديقتي «نتالي بونتان / Nathalie Bontemps».

وها أنا ذا اليوم أنشرها بالعربية، مجرد شاهد على بعض ما حصل في بلدي سورية، وما حدث مع السوريين، أولئك الذين يشكلون لحم هذه الرسائل ودمها!

1- <http://syrie.blog.lemonde.fr>

10 آذار 2012

مساء الخير..

ها هو ذا الشتاء يمضي. كان شتاءً طويلاً وقاسياً جداً! ربما يكون أقسى الشتاءات التي مرّت على سورية على الإطلاق. هل أخبرتك أن عملي انتقل من الريف إلى قلب دمشق؟ أمرٌ من ساحة السبع بحرات مرتين كل يوم، من عملي وإليه.

على واجهة البنك المركزي، في هذه الساحة، صورة كبيرة للرئيس تغطي ثلث المبنى تقريباً. منذ أسبوعين شقّتها الريح فجأة من المنتصف. روت لي صديقة، كانت تمرّ من هناك في تلك اللحظة، أن جميع من في الساحة انتبهوا، لأن الصوت كان قوياً لحظة تمزّقها نصفين، من المنتصف تماماً، وصَفّت لي وجوه الحاضرين التي تنوّعت بين الشماتة والخوف. الخوف هو السلعة الأكثر وفرة في سورية منذ عقود. بعد يومين رأيت صورة جديدة، نسخة عن القديمة، لكنها قد تكون من نسيج أقوى هذه المرة. كان هناك بضعة عشرات من الشبان يرقصون على وقع موسيقا أغنية تتغنى بالرئيس، وتحت الصورة لافتة كبيرة كتب عليها: «... بشار بخير.. الدنيا بخير.. باختصار...».

سأكتب لك غداً في حال توفر الكهرباء والإنترنت طبعاً.

سلامات.

* * *

مرحباً...

غداً عيد المعلم العربي. عادةً يكون هذا اليوم يوم عطلة في كل المدارس. اليوم فوجئنا، نحن المعلّمت والمعلّمين، بقرار إلغاء العطلة في هذا العيد. كنا قد خططنا للخروج والاحتفال في أحد المطاعم. لكن المدير دخل إلى غرفة المعلمين وبدأ خطاباً صباحياً استهله بكيل المديح لوزير التربية ولـ (ذكائه الخارق)!

قال: «غداً عيد المعلم وهو يوم عطلة رسمية كما تعرفون، ويصادف في 15 آذار وهو يوم (ثورة) هؤلاء (الحمير)، كما يسمونها. هؤلاء الحيوانات دعوا إلى الإضراب غداً، وأنتم تعلمون أن المدارس والجامعات تشكل 60% من الموظفين. هؤلاء إن لم يكونوا في مدارسهم، فسوف يكتب أولئك السفلة على «الفيسبوك» أن الإضراب قد نجح. لذلك قرر الوزير (الذكي) أن يوم غدٍ سيكون يوم دوام رسمي، وعلى كل من يتغيّب أن يقدم تبريراً لغيابه تحت طائلة العقوبة». ثم أضاف: «سوف نخرج جميعاً غداً بمسيرة تأييد عالمية في ساحة الأمويين. طبعاً لا أحد يرغمكم على الذهاب أبداً...». ثم أنهى خطابه قائلاً: «نحن نعرف أنكم جميعاً وطنيون وسوف تقومون بدوركم كمعلمين ومربي أجيال غداً في الساحة...» وأضاف مازحاً: «حضروا حالكن للدبكة..»!

ثم مضى دون أن ينظر إلى وجوه المعلّمين والمعلّمات ورؤوسهم التي غرقت بين أكتافهم الدليلة. رفعت إحدى المعلّمات الكيبرات صوتها: «يعني فيه مؤامرة، والعصابات المسلحة تقتل الناس، وترتكب المجازر، وتخطف الأطفال، وتغتصب النساء! طيب؛ لماذا الرقص والدبكة بالساحات؟».

لم تستطع المعلّمة الستينية الأنيقة أن تخفي انفعالها هذه المرة،

فلطالما حسدتها على قدرتها على التظاهر بالحيادية الشديدة. كانت تستعين بكفيتها الاثنتين لتوصل فكرتها، فترفعهما لتلامسا رأسها كأنها تصلي، ومع كل حركة كان عليها أن تعيد تنظيم غطاء رأسها الأزرق بلون عينيها. قليلاً ما سمعت هذه السيدة الدمشقية الأرستقراطية تتكلم، لكن يبدو أنه «طفح الكيل»: «.. يا أخي روحوا على المسيرة بس ما ترقصوا.. يا أخي احزنوا شوية على الأرواح البريئة.. قفوا دقيقة صمت.. دقيقة صمت بس!!».

تلعثمت المعلمة الفاضلة ونظرت حولها، ثم تنفست الصعداء عندما رأتا حولها.. نحن.. نحن فقط.

* * *

الخميس 15 آذار 2012

مساء الخير..

احتجت إلى الكثير من الوقت هذا الصباح حتى اتخذت قراراً بالذهاب إلى العمل. وكما تعرفين، لدي طفلتاي وأنا أحتاج إلى راتبي. محظوظة من لم تنجب أطفالاً يذلّها خوفها عليهم.

ما جعلني أحسم أمري هو أنني أريد أن أنقل لك مشاهداتي. لعلّي أكون شاهدة أمينة على ما يحدث.

كان الوصول إلى دمشق سهلاً، لكن العودة إلى البيت كانت صعبة جداً، بسبب الدعوة إلى (المسيرة العالمية)، كما أسموها. السائق الذي طلب منا ثلاثة أضعاف الأجرة، كان يغيّر طريقه كلما واجهه حاجز أمني مفاجئ وطلب منه العودة. انقضى أكثر من ساعة ونصف ونحن نحاول الخروج من دمشق، والطريق الوحيدة الممكنة إلى بيتي كانت طريق (القصر).

في السرفيس جلس قبالي رجل مسنّ صاح فجأة بالسائق: «قف، قف أرجوك.. أريد أن أقضي حاجتي» (يعني أريد أن أبول). لكن سائق السرفيس، الذي يعرف جيداً عقوبة الوقوف في هذا الطريق، رفض أن يتوقف وظلّ الرجل العجوز يرجوه. سكت جميع الركاب وبدأ الخوف على وجوههم، كأنهم كلهم كانوا يريدون التبول بشدة. بدأ بعضهم يلحّ على السائق كي يقف. لكن ردّ السائق كان جدياً جداً: «عمي.. اعملها هون بالسرفيس وما تخليني وقف.. الله وكيلك بيخربوا بيتي».

وكاد الرجل ينفجر عندما وصلنا إلى أراضي مشروع دمر. نزل العجوز من السرفيس ولم يصعد بعد ذلك.

على فكرة، ما يقال عن أن مسيرات التأييد ليست عفوية هو أمر صحيح، لكن الكلام حول سوق الموظفين قسراً هو كلام غير دقيق.. هناك من يُجبر على ذلك، لكنه سرعان ما يهرب من المسيرة عندما يقترب من الساحة. بالمقابل هناك آلاف المؤيدين الذين رأيتهم يمضون سيراً على الأقدام من جميع الاتجاهات، وهم لا يبدون مجبرين. رأيتهم يحملون الأعلام التي عليها صور الرئيس وسمعتهم يهتفون: «شبيحة للأبد لأجل عيونك يا أسد».

موظفات الدولة وموظفوها انتهزوا الفرصة للاستراحة من العمل والعودة إلى البيت باكراً. الكثير من المراهقين انتهزوا فرصة «الطوشة» للمضي إلى الحدائق العامة والاستمتاع بمواعيدهم الغرامية بعيداً عن رقابة المدرسة والأهل..

نُصب المنبر الإعلامي قبل يومين وزُيّن بالأعلام واللافتات وصور الرئيس المدموغ تحتها كلمة «منحبك» بالأحمر. أكره اللون الأحمر!

ولكن بعيداً عن مكان المسيرة كان سكان المدينة مرهقين وكئيبيين. تستطيعين من نظرة واحدة معرفة إحساسهم الشديد بالقرف (ربما كان

هذا إحساسي أنا؟).. لكنك ستفهمين ما أقول حين ترينهم يتسابقون على أمل اللحاق بالباصات القليلة المتوفرة. يتدافعون عند باب السرفيس ويدخلون أكياسهم السوداء وصغارهم أحياناً من النوافذ، كي يحجزوا كرسيّاً قبل أن يسبقهم الآخرون إليه. مضنية هي رحلة الخروج من قلب دمشق إلى أحيائها البعيدة، عندما تكون هناك دعوة لمسيرة تأييد.

أيّما نظرتِ اليوم في شوارع دمشق سوف ترين الحواجز الأمنية، والرجال المسلحين بلباس مدني وعسكري يقفون جنباً إلى جنب مع رجال الشرطة. يحملون بنادق مرعبة، ويضعون حول خصورهم (جُعباً) فيها الكثير من الرصاص ويتعاملون مع الناس بفضاظة. كنت طول الطريق أقول لنفسي، ما بدا واضحاً لي أكثر من أي يوم مضى: «حُصري نفسك للأسوأ».. إنها الحرب ولن ينقذني منها الآن إلا الكتابة لك.

* * *

18 آذار 2012

مساء الخير..

«عندما تخرج من بيتك تذكّر أن تودّع أسرتك؛ فقد تموت بانفجار سيارة مفخخة، أو برصاص قتاص من على أحد المباني، أو برصاص عشوائيّ من جنود، ما عادوا يعرفون العدو من الصديق».

هذا ما يوصي به سكان دمشق بعضهم بعضاً بعد اليوم.

لا أدري لماذا بدأت أكتب بشكل مثير للشفقة. أردت في رسائلتي أن أحافظ على كم لائق من الكرامة، وأن أنقل لك الصور بموضوعية شديدة.. لكن كيف؟!

دمشق التي ظلت صامتة وقتاً طويلاً، ولم تغير من عاداتها اليومية، برغم موت الآلاف، وآهات المعذبين في أقبية السجون تحت مبانيها

الفخمة، وبرغم الدمار الذي حاق بشقيقاتها من المدن الأخرى. برغم كل شيء ظلّ سكان دمشق، حتى وقت قريب يمضون في (سيّارينهم) أينما طاب لهم الهواء والشمس، حتى لو كان ذلك بالقرب من الحواجز الأمنية. يقدّمون الشاي للجنود ويضيّفونهم الطعام والسجائر.

لو رأيت الحفرة التي أحدثها انفجار يوم السبت، بالقرب من ساحة التحرير، وكيف أصبحت واجهات المباني المجاورة. لو رأيت لعرفت كم باتت أرواحنا رخيصة. اليوم رأيت الخوف في عيون زملائي وفي عيون الطلاب. كانوا حزاني وخائفين.. هل أخبرتك أن مدرستنا هي صورة مصغرة عن سورية الملونة؟!

الجميع يشتم ويلعن من قام بتدبير التفجير، وكل منهم يعني من يعنيه، والفاعل مجهول دائماً، لا ملامح له ولا اسم. لكن ما استفز مشاعر الناس وهم يشاهدون آثار التفجير على القناة السورية الرسمية أن المذيع كان في غاية القسوة وهو يعرض أشلاء الضحايا الذين يبدو أنهم سيزدادون في المستقبل. قلت لك إننا نعيش حرباً سيكون فيها الموت هو المنتصر الوحيد.

سلامات.

* * *

19 آذار 2012

كيفك؟

جرى اليوم حوار لفتني بين بعض المدرّسين، كان كالتالي:
كاترين: مبارح سألتني طالبة: «آنسة.. هلق الرئيس لو ما داعمته أميركا كان بقي؟».. يعني شوفي حسني مبارك لما تخلّت عنه أميركا تنحى!.. تطلعت فيها وقلت لها: وليه.. إنت جدبة؟ ليش أميركا بتقدر

للرئيس؟ ليش أميركا وكل مؤامرتها فيها لسورية؟». ثم أضافت بانفعال شديد: «شو هالجيل التلفان؟.. أغبياء وتافهين! عن جد شعبنا متخلف!». خضر: «هذا الجيل صار تافه وغبي لما رفعنا البوط العسكري عن رؤوسهن.. لك الشعب السوري كله شعب تافه. بكل شعوب الدنيا ما في أتفه من شعبنا».

زينات: «الشعب السوري تافه؟! والله العظيم ما في أحلى من شعبنا، وما في شعب بطل بالعالم مثل شعبنا.. لك أنا بفتخر إني سورية..». أعتقد أن هذه الحوارات تتكرر اليوم في كل مكان من سورية.

* * *

20 آذار 2012

كيفك؟

يقول الحماصنة مازحين: «الموت والرصاص والقذائف تشم رائحة الحمصي وتتبعه أينما نزع، وها نحن نحمل الموت معنا إلى دمشق!». دمشق ازدحمت بالنازحين من المحافظات المنكوبة، وها هي ذي الآن تزدهم بالموت.

بمناسبة الحديث عن النازحين، دعيني أحدثك عن زينب: الوجه الذي التصق بذاكرتي كأنه يحثني لأكتب عنه. امرأة في العشرينيات، من الخالدية في حمص. سألتها: بماذا أساعدك؟، أجابت: «أريد عملاً»، ثم أخفضت عينيها وأشارت إلى طفلة صغيرة التصقت بثوبها، وأضافت: «وحلياً لابنتي».

وأنا أنظر إلى زينب تذكرت أستاذ اللغة العربية في المدرسة. كان المدرسون يتحدثون عن التفجيرات الإرهابية. ثم بدؤوا بالحديث عن المزة والحرب التي دارت صباحاً فيها، قال: «على الدولة ضرب البيئة

التي تحضن هؤلاء (الإرهابيين) بلا رحمة.. البيئة التي تحميمهم يجب ضربها بيد من حديد». ثم وقف ورفع صوته: «خلص.. الوضع صار بدو حسم.. خلس»!

كنا ننظر إليه صامتات وصامتتين نبتلع ردوداً سنؤجلها طويلاً على ما يبدو. لكني الآن أتساءل: أتراه يتحدث عن زينب وطفلتها مثلاً؟

* * *

22 آذار 2012

مساء الخير..

البارحة كنا في زيارة لإحدى صديقاتنا في بلدة دوما. اقترحت هذه الصديقة أن نذهب معها لمواساة أم لشاب قتل منذ أسبوع على يد الجيش. لم يكن سهلاً أن نقول لا.. جلست الأم قبالتنا وبادرنا بالسؤال عن الحادثة. قالت لنا إنهم لم يعطوها جثة ابنها بعد. ذهب أعيان البلدة إلى فرع الأمن وإلى المستشفى العسكري، الذي قد يكون الشاب قد توفي فيه، لكنهم قالوا لهم إنه ليس لديهم.

سألوا كل فروع الأمن وكل المشافي، والجميع أنكروا وجود الشاب أو جثته. روت لنا الحكاية بأنه كان قد اعتقل مرتين، وأن آثار التعذيب لم تزل على جسده. قال لها مرة إن الموت أهون ألف مرة من الاعتقال. وأكملت: «فعلاً في المرة الثالثة التي جاؤوا لاعتقاله فيها هرب من المنزل. اختبأ مع بعض رفاقه في مزرعة قرب دوما. وعندما حوصرت المزرعة من قبل رجال الأمن، حاولوا الهرب بالسيارة فقام الجنود بقصف السيارة، فقتل أربعة منهم كانوا يجلسون في مؤخرة السيارة وبقي ثلاثة. كان هو أحد الناجين لكنه كان مصاباً، فقال لرفيقه بعد أن حملاه مسافة: «اتركاني واهربا.. أن يعيش اثنان خير من أن يموت ثلاثة..»، فتركا (يتشاهد)

وهربا. قالت إنها قابلتهما في ما بعد وهما من روى لها الحكاية. قال لها
إنهما صادفا في طريقتهما ناطورا يعمل في مزرعة قريبة، وإنهما أوصياه
بالشباب الجريح..

ذهبت الأم لسؤال الناطور الذي قال لها إن الدبابة حملته معها.
الأم التي لم تر جثة ابنها، ولا تعرف أين هو الآن، أنهت قصتها
بتنهيده. ثم نظرت إلينا وقالت: «ساعات أقول لنفسي.. قد يكون حياً..
قد يكون استطاع الهرب بمفرده.. أو قد يكون الناطور أخذه وعالجه ولم
يقبل لي... أو.. ربما كان في الدبابة جندي طيب أشفق عليه وأخذه إلى
مكان ما وعالجه. وساعات أخرى أقول لنفسي قد يكون مات، ووضعوا
جثته في تفجيرات ساحة التحرير.. و.. وأحياناً يهياً لي أنهم قد أخذوا
أعضاءه، كونه لم يكن ميتاً بعد... قد يكون.. قد يكون...»

اختنقت الأم بالبكاء وبكىنا جميعنا معها.

نعم، كل تلك الاحتمالات يا صديقتي تحدث الآن في سورية.

* * *

26 آذار 2012

مرحباً

تقول حكاية ابنتي الصغيرة اليوم، إنه في درس اللغة العربية سألت
المعلمة الأولاد: «إلى ماذا ترمز الحمامة؟»، فأجابها ولد: «إنها ترمز
للسلام». قالت: «جيد.. وإلى ماذا أيضاً؟»، أجابت ابنتي: «إنها ترمز
للحرية». وقف ولد في آخر الصف وقال لابنتي عابساً: «بدك حرية؟»،
قالت المعلمة: «كلنا بدنا حرية وين الغلط؟»، قال الصبي مستهجنأ:
«أنسة.. كيف هيك؟»، ثم أنهت ابنتي حكايتها بسؤال: «ماما.. معلمتنا
أكيد معارضة!..»

لكي تعرفي أي مأزق لغوي وأخلاقي واجتماعي وضعونا فيه، سأحكي لك عن الجدران، فلكي تعرفي حقاً ما يجري في سورية عليك أن ترصدي التغيرات على الجدران.. وهذا موضوع طويل سأخصص له رسالة كاملة في ما بعد..

يكتب الشباب الناثرون على الجدران كلمة «حرية».. فيقوم رجال النظام بوضع نقطة على حرف الحاء لتصبح الكلمة «خرية».

أتخيّل أحياناً أنه إذا لم يتغيّر هذا النظام علينا أن نعمل على تغيير اللغة، لكي نخرج من المأزق الذي وضعونا فيه أمام أولادنا.

سلامات.

* * *

15 نيسان 2012

كل شيء يشير لدي رغبة البكاء.

اليوم اتصلتُ بصديقي الطبيب هادي. سمعت صوته وهو يرفع السماعه ويقول لهم: «انتظروا قليلاً قد تكون أمي، وإن لم أجبها قد تموت من خوفها علي». سمعت أحدهم يأمره بقفل السماعه، وسمعت صوته المبتسم الحنون الواثق، كان هذه المرة مرتجفاً. قال: «نعم»، سألته: «هم؟»، قال: «إي والله»، قلت له: «مين بالضبط؟»، لم يجب.. ألححت بالسؤال: «قل نعم أو لا.. الأمن العسكري؟»، لم يجبني. قلت: «السياسي؟» قال: «ما بعرف».. قلت وقد نفذت كل الكلمات مني: «الله معك».

أقفلت السماعه وأنا غير مصدقة، وبقيت طول الليل مستيقظة. كنت كلما تخيلت سياطهم تنهمر على جسده أشعر بالألم.

الاعتقال قدرنا جميعاً هنا.. تباً للقدر!

* * *

صباح الخير..

عاد الأستاذ أنطون من إجازته في ضيعته التابعة لمحافظة حمص.
التف حوله المدرّسون لتعزيته وسؤاله عن ابن عمه المتوفى.

حكى لنا أن ابن عمه، مدرّس الفنون، كان يستقل سيارة أجرة إلى
ضيعة الهادئة عندما حدث إطلاق رصاص، فاخرقت رصاصة نافذة
السيارة واستقرت في رأسه. لم يمه الأستاذ أنطون حديثه حتى ارتفع
صوت الأستاذ نصر: «ابن عمي أيضاً قتل في الزبداني».

لم يلتفت إليه أحد، كأن صوته لم يكن عالياً بما يكفي لسمعه
الآخرون.

كان كلما أنهى الأستاذ أنطون جملة يغيّر الأستاذ نصر مكانه ويرفع
صوته ليعيد الجملة نفسها: «ابن عمي قُتل الأسبوع الماضي.. هو نقيب
في الجيش. قتلوه الكلاب المتآمرين».. وينهي كلامه بـ «يلعن الله.. لك
ليش هيك عم بيصير؟». لكن أحداً لم يقم بتعزيته!

كان الجميع متأثراً بحديث أنطون وهو ينهي روايته الحزينة بقوله:
«ابن عمي لم يكن عسكرياً ولا معارضاً.. كان مواطناً عادياً.. عنده أربعة
أولاد وكان يسعى من أجل معيشتهم».

خرج المدرّسون إلى صفوفهم بعد إبداء أسفهم وتعازيهم لأنطون،
وبقيت أنا ومعلمة أخرى معه، فبادرت بالحديث: «اعتقدنا أنك رحت
للاحتفال بعيد الشغينة؟»، قال: «أي عيد؟!... اللي عم يصير بضيعتنا لا
يُصدّق.. هي حرب حقيقية!».

سألته: هل هناك مسلحون معارضون في قلعة الحصن، كما نسمع؟
قال: «إيه، وبالجهة المقابلة هناك الشبيحة.. هؤلاء ليسوا بشراً أبداً،
فمن أجل قتل معارض واحد يقتلون كل من يأتي في طريقهم».

سألته: «أيهما أسوأ؟»، نظر إلى الأستاذ نصر الذي خُلق فجأة في الغرفة، وقال مخفضاً رأسه: «أسوأ من بعض».

* * *

18 نيسان 2012

مساء الخير..

اليوم مساءً بدت لي شوارع دمشق متعبة. كانت فارغة تقريباً، كأنها في وقت ما قبل الإفطار في رمضان. مشيت في شارع الحمراء ثم الصالحية، ومررت أمام البرلمان. تذكرت بسام الذي ضُرب من قبل ثلاثة رجال دفعة واحدة هنا منذ أيام. كان يحمل لافتة كتب عليها «أوقفوا القتل.. نريد سورية لكل السوريين».

كان ومجموعة من الصبايا والشباب قد اعتصموا أمام البرلمان، أو مجلس الشعب كما نسميه، وأضأوا الشموع ثم وقفوا صامتين.

تذكّرت رأسه المهشم وقميصه المضرج بدمه، ووجه ابنته الباكي. ضربوهم على مرأى من الناس، واستمروا بضربهم في الباص في طريقهم إلى الفرع. كنت أنظر إلى بلاطات الرصيف، تُرى، لو نطقت ماذا كانت ستقول؟!

فكّرت في قطع الشارع، لكنني تسمرت في مكاني حين كاد الباص الذي من المفترض أنه باص نقل عام أن يصدمني. على بابه وقف رجال مسلّحون. كانت أسلحتهم تخرج مصوبة إلى وجوه المارة. رأيت من زجاج نوافذه الكبيرة رجالاً بثياب مدنية.. في البداية ظننتهم شبيحة أحنوا رؤوسهم إلى الأمام لأنهم متعبون، فقد جرت العادة أن يخفوا المعتقلين بين الكراسي، وأن يظهروا هم بأسلحتهم وهتافاتهم، التي لا تتعب، للرئيس. لكن الباص كان يمضي بطيئاً على غير العادة، وكان بالإمكان أن

نراهم وأيديهم خلف ظهورهم. كانوا مهانين، مطأطئي الرؤوس... اليوم كانوا يريدوننا أن نراهم.

اليوم كانوا يريدوننا أن نشاهدهم لكي نتعظ. لم أعرف بعد ذلك كيف، ولا إلى أين أمضي! كنت أردد بيني وبين نفسي بصوت يكاد يكون مسموعاً: «شوهاالوقاحة؟.. شوهاالوقاحة؟». ثم انتبهت أنه يجب أن أقول شيئاً أقوى بكثير..

* * *

20 نيسان 2012

مرحباً..

قبل أيام كنت أشارك في دورة للدعم النفسي. طبعاً هذا النشاط من أهم النشاطات الموجودة بكثافة في سورية اليوم، لأننا، كما ترين، أحوج ما نكون إليه. سألت إحداهن: «ما رأيكم بمشاركة الأطفال في المظاهرات؟».

أجاب أحدهم: «لَمْ لَا؟ أليس من حق الأطفال أن يشاركوا في صناعة مستقبلهم؟».

أضافت أخرى: «لا يمكن عزل الأطفال بعيداً عما يجري، خاصة في مناطق الحراك، فهؤلاء على الأقل شهدوا مداممة بيوتهم واعتقال ذويهم، أو شهدوا إطلاق رصاص عشوائي أصابهم أو أصاب ذويهم في بيوتهم».

قال آخر: «لم تعد زوجات المعتقلين والشهداء تستطيع السيطرة على أولادهن، خاصة الذكور منهم».

تذكرت الكثير من الأطفال الذين بدأت أزور بيوتهم منذ سنة وأستمع إلى حكاياتهم:

سامي في الرابعة من عمره، كان بيته يتعرض للمداهمة دائماً من أجل البحث عن والده الهارب. روت لنا الأم كيف أنهم قفزوا صباحاً عن سور المنزل. قالت: «كانوا أكثر من عشرة رجال باللباس العسكري الكامل يحملون البنادق في أيديهم. صوبوا بنادقهم على البنيتين والولد...».

لم تكمل، فقد علا صوت الولد: «كانوا عاملين هيك.. (يصوب بندقيته البلاستيكة نحونا) ثمت² من نومي ضربته هيك (ضرب بكوعه الهواء) وبعدين أخذت منه البارودة و... طاق طاق.. أوصتن³ كلن.. كلن..»، صمت قليلاً ثم أضاف: «..لا.. إلا واحد..لا..لا.. إلا اتنين..». ففكرنا كثيراً يومذاك: لماذا لم يطلق سامي النار على هذين «الأتين» كما وصفهما؟! وبما أنه من الخطأ سؤاله، وصلنا إلى نتيجة أنهما قد يكونان ابتسما له.

ملاحظة: سأكتب لك غداً عن الأطفال وعن حقوقهم، ولا أنسى أن أقول لك إننا اتفقنا في نهاية حوارنا حول حقوق الطفل أن (حق الطفل في الحياة) له الأولوية اليوم في سورية.

* * *

24 نيسان 2012

كيفك؟

سأكمل لك ما بدأته حول أطفال سورية والتغيرات التي طرأت عليهم. قبل انتقالي إلى مدرستي الحالية، كنت أعمل في مدرسة كل طلابها من لون واحد. كان معظم تلامذتي من أبناء الجنود وضباط الجيش. قبل عطلة عيد الفطر بيوم دخلت إلى غرفة الصف السابع فوجدت عشرة

2- كما لفظها الطفل، وتعني أفقت من نومي ونهضت.

3- أوصتن: أطلقت الرصاص عليهم.

طلاب فقط في الغرفة، مما لا يسمح بإعطاء درس، فاقترح أحد التلامذة بأن يغني لنا أحمد. جلست بين الطلاب ووقف أحمد مكاني وبدأ بالغناء. كان يغني «الرباب»، وكان صوته جميلاً، أما الكلمات فقد صدمتني لدرجة كبيرة.. لم أعد أذكر كلمات الأغنية بالضبط، ولكنها كانت تدعو إلى الثأر للحسين وما إلى ذلك. المدهش في الأمر أن زملاءه كانوا يرددون الكلمات معه. سألتهم من هو المغني، فقالوا لي اسمه، وقالوا إن أغانيه تباع على (سي دي) في الأسواق. لم أجهد نفسي في سؤال أحمد ورفاقه إن كانوا يعرفون معنى كلمات الأغنية الطائفية العنيفة والتي تفيض كراهية، أو إن كانوا حقاً يقصدونها، لكنهم كانوا بالتأكيد متحمسين لقدرة الصبي الريفي على غناء هذا النوع الجديد من الغناء.

اليوم التالي كان أول أيام عيد الفطر، وكنا قد قررنا أن نذهب لزيارة أسر الشهداء في حرستا. محمد أيضاً من المفترض أن يكون في الصف السابع، أي في عمر أحمد. قالت لنا الأم إن محمد لا يذهب إلى المدرسة، لأنه أخذ مكان والده رجلاً البيت.

وبناءً على طلب أمه بدأ محمد يرينا على شاشة الكمبيوتر الفيديو الذي يصور كيف أعيد والده جثة إلى البيت بعد يومين من اعتقاله. كان الولد يتصرف كرجل كبير. بدأ يرينا الصور، ويشير بالسهم إلى أجزاء الجسد، كأنه طبيب شرعي. كان يشير بـ(الماوس) إلى وجه أبيه المشوه، إلى تجويفين مكان العينين وإلى ساقيه حيث اقتلعوا ركبتيه، ويشير إلى آثار المسامير على ذراعيه وصدره المشقوق... و... و...

توقفت عن النظر إلى جثة الرجل المشوهة. ورحت أنظر إليه، أنظر إلى محمد الصامت تماماً، وأتذكر تلميذي أحمد الذي كان يشبهه كثيراً وفي العمر نفسه. هما يعيشان في المدينة ذاتها، وكان من الممكن أن يكبرا ويكونا زميلين في الجامعة أو الوظيفة أو المهنة أو النادي الرياضي ذاته. لكن يبدو أن الـ (سي دي) الذي يباع في المساكن والفيديو الذي

حفظه محمد غيباً سيقتلان الأمل في لقاءهما، وسيغتصبان طفولتهما
وطفولة الكثير من أبنائنا لوقت ليس بقصير..!

* * *

1 أيار 2012

صديقتي العزيزة..

كنت اليوم أتساءل، وأنا أحضّر لإفراغ ما في جعبتي من حكايا
السوريين لك: هل هناك سعادة تتأتى من سرد الحكايات؟ ربما السعادة
تتأتى من إحساسي بأنّي أقوم بفعل ما! يا لسعادتي كم أصبحت مثيرة
للشفقة!

الحماصنة، أو النازحون، أو الناجون، كما يفضل أحد أصدقائي،
الموجود حالياً في المعتقل، تسميتهم، تمتلئ ذاكرتهم بالقصص، وغالباً
ما يقصّونها وهم يتسممون.

بعضهم تدمع عيناه وهو يحكي حكايته، لكنه رغم ذلك لا ينسى أن
يبتسم. وبموهبة الفطرية، يبحث عن النكتة ليختم بها الحكاية ويضحك
مستمعيه. أما أطفالهم فيبدون خائفين وقلما يتسممون لغريب، وإن لم
يختبروا الكثير مما اختبره أهاليهم، إلا أن حرمانهم من عام دراسي
كامل وتركهم بيوتهم قسراً وأسباباً أخرى كثيرة، تبدو كافية لترك ندوب
لا تمحى في ذاكرتهم.

أمل.. طفلة في العاشرة، خاضت رحلة شاقة مع والدتها وأخويها
الصغيرين. هربت بهم الأم الشابة من «الخالدية» بعد أن حوَصِر الحيّ
من قبل رجال الأمن والجيش، واعتقل الزوج والأب. مضت إلى حيّ
«الوعر»، لكن مئات آلاف النازحين كانوا قد سبقوها إلى هناك، كما
تقول.

تقول أم أمل: «في حيّ «الوعر» ينام الرجال على الأرصفة، وتنام النساء وأطفالهن في مداخل البنايات. كل حمص نزلت إلى حيّ «الوعر». لم أستطع التحمّل، فقررت العودة إلى بيتي، حتى لو متّ أنا والأولاد. جررت خلفي أطفالي وعدت إلى «الخالدية» مساء اليوم التالي. لكن، لن تصدقي ما رأيته، كانت البيوت مهدمة، والشوارع خالية إلا من القطط، وبعض الشباب المسلحين بأسلحة خفيفة.

وجدوا لي بيتاً لأبيت ليلتي، وقالوا لي إنه عليّ العودة للوعر في الصباح التالي».

تضيف وهي تبسم: «كانت الكهرباء مقطوعة، وبين الحين والآخر كنا نسمع أصوات القصف... بس صارت معنا شغلة بتضحك رغم كل شيء»، تضحك وتكمل: «قامت أمل من نومها فجأة، وتناولت غطاءً ثم وضعته على رأسها وقالت: بدي صليّ، ثم وقفت أمام النافذة واستدارت نحوي وقالت: «ماما أعطيني مكانك، أخاف أن تأتيني رصاصة من النافذة». ضحكْتُ وقلت لها: يا ماما هلق ما عاد في رصاص يبجي من شباك، هلق في قصف من الدبابة، يعني في سقف بيهبط على روسنا!.. وما إن أطلقنا ضحكنا حتى سمعنا صوت انفجار، واهتزت البناية فارتمت أمل في حضني ونظرنا معاً إلى السقف!.. تضحك وتضيف: «لكنه لم يسقط فوق رؤوسنا والحمد لله. كان سقف البناية المجاورة وكانت مهجورة.. الحمد لله.. نشكره ونحمده».

تتهي قصتها ثم تتابع كأنها تذكرت شيئاً: «بس.. من يومها أمل عم تزف... يمكن إجهتها الدورة.. بس هي بعدها صغيرة!..».

لو ترينها.. أمل طفلة بجديلة، طفلة بلا لعبة وبلا فستان جديد، طفلة كبرت قبل الأوان، مثل معظم أطفال سورية.

* * *

مرحباً

أريد ان أحدثك عن الجدران.

من الصعب أن تري كتابات على الجدران في قلب دمشق، لكن يمكنك أن تري كيف شوّعت صور «شريف شحادة» و«طالب إبراهيم»، وهما من المرشحين الجدد لمجلس الشعب و«بوقا» النظام الأبرزان في الإعلام. فمثلاً وضعوا على صورهما أذني حمار أو قاموا بتطويل أنفيهما.

في ركن الدين وبرزة والقابون ومعظم مناطق ريف دمشق، لا يمكن أن تجدي جداراً دون كتابة وكتابة مضادة، أعني مثلاً عبارة «يسقط النظام» تصبح «يسقط العرعور» أو «يسقط حمد». من اللافت مثلاً أن رجال الأمن مصرّون منذ بداية الثورة على تنصيب «العرعور» مقابل «الأسد».. لماذا لا يكتبون «يسقط الإرهابيون» مثلاً، أو «تسقط القاعدة» أو «تسقط العصابات المسلحة» وفق روايتهم؟!

بعض الجدران باتت لوحات ملونة بألوان فوق ألوان فوقها ألوان..

في مساكن برزة كتب بخط جميل «تسقط الزرافة»، وفي دمر كتب «تسقط البطّة». في الحجر الأسود كتبت كلمة «تسقط» وبجانبتها رُسمت بطّة.

بعد أن اقتحموا قدسيا واعتقلوا الناشطين كتبوا على جدار البلدية عبارة: «الأسد أو لا أحد». في اليوم التالي قام أحدهم بوضع عين على السين فأصبحت «الأسعد أو لا أحد».. بقيت يوماً كاملاً قبل أن ينتبه لها رجال الأمن. كان الناس يقرؤونها فرحين بذكاء الشاب الذي يكتب ليلاً على الجدران. في اليوم التالي حاول رجال الأمن تصحيحها لكنها شوّعت أكثر فقرروا تغطيتها بالأسود.

في كل منطقة من سورية يوجد اليوم شاب يسمى «الرجل البخاخ».

قتل منذ أيام الرجل البخاخ في «كفر سوسة» برصاصة قناص، فحزنت معظم أحياء دمشق.

البارحة صباحاً اقتحموا منازل الزاهرة ودف الشوك وحي التضامن. حاصروا المنطقة ومنعوا خروج الناس منذ الساعة الخامسة صباحاً. قال لي أحدهم إنهم كانوا ينزلون الشباب من بيوتهم عراة تماماً. قال لي إنهم لم ينسوا أن يسجلوا نصرهم على الجدران، بعبارة تتكرر كثيراً هذه الأيام: «الأسد أو نحرق البلد»..

* * *

5 أيار 2012

مرحباً..

أصطدم بالأشياء أينما ذهبت. كلما أردت أن أقوم بشيء ما للتخلص من الفوضى المنتشرة في المنزل، يخرج صوت من التلفاز يتكلم عن تفجير هنا وتفجير هناك في قلب دمشق. حتى «دف الشوك»، هذا الحي الفقير جداً والمكتظ بالسكان، لم ينجُ من التفجيرات.

أتعثر بشيabi، أتعثر بأفكاري.. أكاد أجن! أي عقل أحرق خطط لهذه التفجيرات؟ الآن وقد بدأ هذا المسلسل كيف سينتهي؟

في بيتي، الفوضى تملأ المكان. والرجل الذي يظهر على التلفزيون يثير اشمئزازي. وغداً قد أمر مصادفةً في مكان ما في دمشق ويحدث انفجار. لكن فكرة أن يلتقط هذا الرجل نتفة من لحمي بأصابعه القذرة، وحدها تثير غضبي.

اليوم عطلة وأولادي يلعبون غير أبهين. وبساتين برزة تُقصف ودمشق مرعوبة. شوارعها تكاد تكون خالية إلا من بعض عمال يعلّقون

لافتات المرشحين لمجلس الشعب، ويشتمون حظّهم التعس الذي جعلهم
يقبلون بهذا العمل وبأجره السخيف.

* * *

10 أيار 2012

مساء الخير..

اليوم دخل مازن غرفة المدرّسين يشتم الإرهابيين والعصابات
المسلحة.. والإله. كان قد ذهب لرؤية آثار التفجير في منطقة القزاز.
لا أدري كيف تصبح ساحة التفجير كل مرة متحفاً سياحياً بعد ساعات
قليلة من الانفجار. حدث هذا في كل مناطق التفجير: الميدان، ساحة
التحرير، والآن القزاز.. كل من يذهب إلى هناك يستطيع رؤية الأشلاء.
وغالباً ما يذهب مؤيدو النظام لأنهم واثقون بأنه مرحّب بهم في كل
الساحات حتى في تلك التي تمتلئ بالجثث.

دخل مازن غرفة المدرسين بحركة مسرحية حتى أنه جذب انتباهنا
جميعاً. قال: «كلاب.. سفلة.. شيء بشع.. جثث مقطعة.. محروقة.. أبنية
كاملة مهدمة.. مئتا جثة على الأرض، وجرحى.. هاد رايحة عينه وهاد
إدنو.. يلعن ربهن..» (كل مرة كان يلعن فيها الرب، كان بعض المدرسين
يستغفرون الله!).

يكمل بعصبية شديدة ويكزّ على أسنانه: «والله.. يبجي عبالى حطّ
حزام ناسف وانزل على شي مظاهرة وفجّرهن كلهن..»، يسكت قليلاً،
ثم يكمل: «سورية فيها ثلاثة وعشرين مليون.. يموت منهم اطنعش (اثنان
عشر).. شو يعني..!».

نخرج من الغرفة. بعضنا يضع يده على قلبه، وبعضنا الآخر يضع يده
على فمه، فمعظمنا سيكون من هذه الـ«اطنعش» مليوناً في النهاية.

* * *

12 أيار 2012

كيفك؟

نورا تعيش في حي من أحياء الموالاتة. كل ما تفعله هو نقل الأحاديث التي تدور حولها، بين زوجها وبعض الشبيبة المخضرمين وأصدقائه من رجال الأمن. تحدّر صديقاتها وأصدقاءها بطيبة شديدة: «لا تخرجن أو لا تخرجوا في اليوم (كذا)؛ (هم) يقولون إن القاعدة ستنفذ عملية كبيرة». هم يقولون إنه في يوم الخميس سيحدث تفجير كبير.. فقد أعلنوا (يقصدون القاعدة أو العصابات المسلحة أو المتظاهرين، وفق الأستاذ مازن الذي حدثتك عنه أمس) إنه سيحدث انفجار كبير يوم الخميس (وهذا حدث فعلاً)!

اليوم قالت نورا: «لا تخرجوا يوم الثلاثاء من بيوتكم.. إنهم يقولون إن تنظيم القاعدة قال إنه في 15 أيار سيحوّلون دمشق إلى بركة دم، وكذلكذكروا حلب»!

أردت أن أكتب لك هذا، فيوم الثلاثاء الذي ذكرته قريب جداً. إن حدث ذلك فسيكون زوج نورا وأصداؤه مرفوعاً عنهم الحجاب⁴.

* * *

14 أيار 2012

مرحباً..

هناك أحداث كثيرة حصلت هذا الأسبوع في دمشق أهمها تفجير القزاز. ما زال سكان دمشق يتحدثون عن حكايات الذين صادف وجودهم في تلك المنطقة في توقيت الانفجار، فخسروا حياتهم. يتحدثون عن طلبة كانوا ذاهبين إلى جامعاتهم، وعن آباء وأمّهات كانوا ذاهبين إلى

4- مرفوع عنهم الحجاب: يقرؤون المستقبل.

أعمالهم اليومية ولم يعودوا إلى أولادهم في ذلك اليوم. هم سيئو الحظ بالتأكيد لكن لا أحد يذكر ذلك. يقولون هذا نصيبهم أو هذا ما قسمه الله لهم. أحياناً أفكر إنه لولا إيمانهم بالقضاء والقدر لتحوّلت البلد إلى مستشفى مجانيين.

أذكر زوجة شهيد قتل في إحدى المظاهرات في مدينة دوما في ريف دمشق في نيسان 2011. شلّت يد الزوجة الشابة منذ أن سمعت نبأ مقتل زوجها. يوم زرتها أدهشتني ابتسامتها. حدّثتني كم أحبه وكيف أحبها، وذكرت أنها لم تقترح به كفاية، فهما لم يكملتا سنتهما الثانية في الزواج، وأنه لم ير ابنه الذي كانت حاملاً به عندما قتل. حدّثتني كعاشقة جميلة قادمة من حكايات رومانسية دافئة، وفي نهاية حكايتها المؤلمة قالت: «هذا نصيبنا وهذا ما كتبه الله لنا. كل يوم أراه في منامي.. هو هناك في الجنة وفاتح بابها لي».

لم تفارق الابتسامة وجهها طول حديثها، كأنها لا تريد إرهاق سامعها. هي الآن ربما تحتضن طفلها بيد وترمي يدها الأخرى المشلولة جانباً وتحكي لغيري ذكريات عن حبيبها. ربما...

* * *

15 أيار 2012

مرحباً من جديد

في الصباح الباكر كانت فادية تحدّثنا عن حادثة الضاحية مساء أمس على الطريق الجديد بين مساكن الحرس الجمهوري وضاحية قدسيا..

قالت: «كان الرجل القتل مسرعاً في سيارته الكبيرة إلى بيته في الضاحية، ولم يقف على الحاجز الأمني، فصوّب الجنود بنادقهم إلى

رأسه وأردوه قتيلاً. ابني كان وراءه في سيارته وشاهدهم عندما قطعوا الطريق». تكمل قصتها بعصبية شديدة: «أنزلوه وجروّوه إلى جانب الطريق ودقّوا رأسه بأعقاب البنادق».

تقول إحداهن: «والله العظيم عم يصير كثير ظلم..».

تدخل الغرفة معلمة وتطلب من فادية إعادة سرد الحكاية. تعيد فادية سرد القصة دون أن تغيّر حرفاً، رغم معرفتها بأن زميلتها زوجة ضابط. فتسأل المعلمة في نهاية الحكاية:

– وما عرفتشو عامل؟

– قالوا إن الحاجز اشتبه بأنه يحمل متفجرات في سيارته.. بس سيارته ما طلع فيها شي..

– وكيف عرفت إنه ما فيها شي؟

– هيك قالوا.. (ثم تتابع بتحدٍّ) .. طيب اشتبهوا به وقتلوه، ليش جروّوه ودقّوا رأسه بعد ما مات؟ كل الناس شافتهم.

– أي طيب ليش ما وقّف على الحاجز؟ في هذه الظروف الصعبة لازم أي واحد ما يبوقف على حاجز يقوصوه. وبعدين إنت ما بتعرفي قديش بيكونوا خافوا منه وقديش هني تعبانين. والله العظيم ما عم يناموا الليل، مساكين..

تهز الأخريات رؤوسهن مؤيدات.. فتكمل: لمّا بيكون الشخص بريء ليش يخاف؟ لازم ما يخاف.. وحتى لازم يفتح لهم ليس فقط سيارته بل بيته ليفتشوه. أنا في إحدى المرات إجوا فتشوا بيتي.. وقفوا وصاروا يتطلعوا على اللوحات على الجدران وسألوني عنهن. كانوا مهذبين ويفهموا بالفرن!

استمرت الأخريات بهزّ رؤوسهن مؤيدات، وما إن أدارت هذه المعلمة ظهرها ومضت حتى بدأن بلعنها.

أمضي إلى غرفة المدرسين فتقطع ثريا طريقي، وهي عاملة تنظيف من مساكن الحرس القريبة من ضاحية قدسيا.

- شفتي شو صار مبارح بالمساكن؟.. كان في واحد رايح يفجر بالضاحية.. كانت سيارته مليانه متفجرات.. إي والله يا آنسة... ولما عرفوه العساكر يا عيني إجوا يوقفوه.. قام قوَّصهن.. قتل منهن أربعة.. بس واحد منهن الله يحميه قوَّصه برصاصة وحدة برأسه.. يا عيني كان مقهور كثير على رفقاته!.. شفتي يا آنسة شفتي هاالإرهابيين؟ يا ويلهم من الله..

جاءت ثريا من إحدى ضيَع الساحل إلى دمشق مع زوجها الذي يعمل مساعداً في الجيش. بالنسبة له كانت مجرد وظيفة يتخلص بها من العمل المضني والبلالفائدة في (الأرض). لديها ولدان وبنت لديها إعاقة جسدية.

بعد تفجير القزاز، أغلق معهد المعاقين، ولم يكن هناك أحد يمكن أن يعتني بالطفلة، فكانت تحضرها معها أحياناً للمدرسة وتتوسل المعلمات لكي يُدخلنها غرف صفوفهم من أجل أن «تتعلم حرفين» (كما كانت تقول). لكن المعلمات كنّ يرفضن دائماً، متذرعات بقوانين المدرسة. يمكن القول إن زوج ثريا كان شريفاً، رغم أن عمله كان مدّ الجنود في أرض المعركة بالذخيرة، إلا أنه، كما ذكرت لي، كان ساخطاً جداً من سلوك بعض الجنود والضباط وكان يصفهم بـ(الحرامية). ذكرت لي أنه كان سيرمي عليها يمين الطلاق مرةً لأنها اشترت من جارتها (زوجة مساعد آخر) طقم طناجر ستانلس بسعر رخيص جداً. وقد حرّم على نفسه وعليها إدخال أي (بضاعة حرام) إلى بيته.

من السهل جداً إقناع ثريا بالسلوكات السيئة لرجال النظام. وهي تكره الشبيحة حتى من أبناء ضيعتها. لكنها بالمقابل كانت بسيطة

لدرجة أنها يمكن أن تصدّق أي إشاعة حتى لو بدت غير معقولة، وكانت تساهم في نشرها كأنها تقوم بواجب وطني.

* * *

16 أيار 2012

مرحباً صديقتي..

كيف الحال؟

قد أكون تأخرت بتقديم التهاني لك بتغيير رئيس بلادك، ولكن مع ذلك أود مصارحتك بأنها المرة الأولى التي أهتم فيها بالانتخابات الفرنسية، ولأول مرة أجلس وأصدقائي وعائلتي جميعاً متسمّرين أمام التلفاز ننظر إلى الرئيس القديم بيارك للرئيس الجديد، دون أن يشكك في نتائج الانتخابات، ودون اعتقالات وقتل ودمار وتهجير للشعب، ودون حتى غازات مسيلة للدموع!

كان الشباب يتمازحون: «والله هيك كثير.. ارحمونا يا عالم والله نحنا بنغار...».

«خمسّة عشر شهراً والسوريون يموتون من أجل تغيير الرئيس، وفي فرنسا الرئيس يتغيّر خلال ساعات... هذا غير عادل» كان الشباب يقولون ضاحكين، ثم يُقَلَّب أحدهم المحطات ويقف عند رجل أصلع على إحدى المحطات. كان الرجل يجيب عن سؤال: لماذا لا يستقيل الرئيس السوري أو يقوم بانتخابات ديمقراطية مثل كل الرؤساء في العالم المتحضر؟! الرجل الذي كتب تحت صورته «مفكر ومحلل سياسي سوري»، كان يتحدث بلهجة واثقة: «لمن لا يتذكر، سورية هي إحدى دول الطوق، ولدينا قضية وطنية رئيسية لم تُحلّ هي القضية الفلسطينية، لذلك بلادنا بحاجة لزعيم وليس لرئيس. الرئيس يتغيّر كل أربع أو خمس سنوات ولا تسمح

له تلك الفترة القصيرة بعمل شيء من أجل القضية، أما الزعيم الوطني فأمر مختلف».

يمسك أحد الشباب بالـ «ريموت كنترول» ويقفل الجهاز ويلعن أبو إسرائيل على أبو القضية.

* * *

23 أيار 2012

مساء الخير..

وكان المؤيدين يفرحون حين يحدث تفجير ما. ترسم على شفاههم ابتسامة شماتة. هل هي كذلك أم بهيأ لي؟

إنهم، في كل مرة يتحدثون فيها عن التفجيرات، يعيدون إلى ذاكرتي مشهد الفيديو الذي يظهر فيه جندي يدوس بجزمته الثقيلة على ظهور رجال ممددين على الأرض وأيديهم مكبلة خلف ظهورهم، ويردد مع كل قفزة أو ركلة: «وهاي منشان الحرية.. منشان شو؟.. منشان الحرية»..

اليوم وقف المدير بين المعلمين وقال: «قد يكون هناك طلاب متأخرون عن الامتحان، لأنه يقال إن هناك انفجار في حي القابون».. يخرج صوت الموجه في نهاية الغرفة: «يقولون بالبرامكة»!

ينسحب المعلمون والمعلمات من الغرفة واحداً بعد الآخر، يرفعون هواتفهم ويتصلون بذويهم متحركين جيئة وذهاباً في الممرات في مشهد أقرب إلى الهستيرى.

تتصل إحداهن بأهلها في القابون ويرتفع ضغطها وترتجف.. تقول: «لا يجيب». وتحاول مرة ثانية وثالثة وأخيراً يرد أحد ما في الجهة الأخرى منزعجاً من إيقاظها له فتضطر للاعتذار.

نصف سكان دمشق ربما يمرون من البرامكة في طريقهم إلى

أعمالهم، ومعظمنا له أقارب أو أبناء يمرّون من هناك في هذه الساعة من الصباح. تدخل معلّمة إلى الغرفة، ترفع هاتفها النقال تضعه على أذنها، تتلو كلمات من الإنجيل. أقول لأهدئ من روعها: «قد يكون الكلام غير صحيح»، ترد بسرعة: «كيف غير صحيح؟ المدير له معارف في كل مكان»، ثم يرن هاتفها. يتكلم رجل في الجهة الأخرى من الخط: «ما في شي بالبرامكة». «إيه الحمد الله» تجيبه، وتضيف بعد إغلاق الهاتف: «انسمّ بدني وارقع ضغطي.. قال ما في شي»..

أصطدم بثرىا ويهياً لي أنها أيضاً سعيدة بما ترويه لي، قالت: «شفتي يا آنسة مبارح خطفوا اثنين من المساكن ورجعوهن مقطّعين (تفتح كفها كالسكين وتمرره على ذراعها الأخرى وهي تكزّ على أسنانها) .. ذبحوهن هيك.. الله لا يوفّقهن هاإرهابيين!»

* * *

24 أيار 2012

مرحباً..

اليوم كانت شوارع دمشق مقطّعة الأوصال منذ الصباح الباكر. الجيش في كل مكان. لا، ليس الجيش.. إنهم الشبيحة يلبسون البذلة الزيتية ذات المقاسات التي لا تناسب أجسامهم والتي على ما يبدو خيطة على عجل، ويضعون على رؤوسهم كاسكيت (طاقية) بيضاء رُسم على مقدمتها العلم السوري، الذي يعتبره نصف الشعب السوري اليوم علم النظام. كانوا كالجراد ينتشرون صباحاً على الطرقات، وكانوا مسلّحين بأسلحة تعود عليها نظرنا للأسف.

سألت «ماذا هنالك؟»، فقل لي «إنها الجلسة الأولى لمجلس الشعب الجديد». أُغلقت الشوارع ومنع دخول السيارات إلى دائرة قطرها نحو

كيلومتر حول مبنى مجلس الشعب. تأخرت بعض باصات الطلاب في الوصول. «ما الأمر؟» سألت معلّمة، فردّت أخرى: «الرئيس رح يجي يخطب بالمجلس». سمعتها إحدى المعلمات فردّت بتهيدة: «الرئيس بدو يخطب؟.. انشالله.. يا رب!».

هي امرأة بسيطة جداً كل ما يهتمها عملها وأولادها وزوجها الذي لا يرضيه شيء. وهي تعتقد أن الرئيس عندما سيلقي خطابه على مجلس الشعب اليوم (إن أتى)، سينهي الأزمة ويعيد الأمور إلى ما كانت عليه. يشاركها الكثير من الناس هذا الاعتقاد.

لكن الرئيس لن يأتي إلى مجلس الشعب ولن يلقي خطبته ولا حتى عبر شاشة التلفاز.. هو خائف جداً، والناس يتهايمسون عن أشخاص دسّ لهم السم في الطعام. يتحدثون عن أصف شوكت الذي ربما قصف عمره (مات) في مشفى الشامي، ويدللون على ذلك بوجود عناصر الجيش الذين قطعوا الطريق بين المهاجرين وساحة الأمويين في ذلك اليوم، والذين لا يزالون موجودين لحراسة هذا المشفى الذي تثق به عائلة الأسد كثيراً. وربما هناك غيره في غرفة الإنعاش!

تتضارب حكايات الناس حول هذا الموضوع.. بعضهم يتحدث عن طبّاخ كان ولاؤه للثورة أكثر من ولائه لأولياء نعمته. بعضهم الآخر يتحدث عن أن الأسد ربما تخلص من صهره لأنه خاف من تمرده عليه، وآخرون يتحدثون عن خطة ماهر الأسد للتخلص من صهره البغيض.. ربما.. قلت لك سابقاً إن الاحتمالات في سورية دائماً كثيرة ومفتوحة.

* * *

28 أيار 2012

مساء الخير..

طويل جداً ليلنا هنا، لكن ليلة مجزرة «الحولة» كانت أطول ليلنا

على الإطلاق. فما إن انتشرت أخبار المجزرة بعد منتصف الليل حتى استيقظت معظم مناطق سورية وبلداتها. في بلدتنا خرج الناس من بيوتهم وبدؤوا يتظاهرون. كان لصوتهم صدى قوي وصل إلى رجال الأمن فجاءوا وأطلقوا الرصاص. بدت كأنها جبهة حرب! كنت أسمعهم عبر النافذة.. رحت أنظر إلى أولادي النائمين، وأبكي على أطفال الحولة الذين ذُبحوا. كنت أحاول تخيل السكين على أعناق أولادي، وأرتجف من الخوف فأحضنهم وأقبلهم، ثم أمضي إلى فراشي راجية من الله أن تكون تلك مجرد كذبة، فكيف سأصدق أن في مجتمعنا السوري مصاصي دماء؟!

في اليوم التالي ذهبنا مساءً للوقوف في ساحة الحريقة وقراءة «الفاحة» على أرواح الضحايا. كانت الدعوة علنية على «الفيس بوك»، لذلك كانوا بانتظارنا مزودين بالبنادق والعصي. قررنا أن لا نخاف. تجمعنا وقرأنا الفاتحة. فتحنا أيدينا للسماء وقرأناها بصوت عالٍ، وقبل أن ننهيها انهالوا علينا بالعصي. عليّ أن أقول إن كنتي ما زالت تؤلمني. لكنهم يكرهون الشباب أكثر.. يضربونهم بوحشية ليكسروا أضلاعهم. قبضوا على شاب لكننا نحن النساء تعلقنا به ونجحنا في تخليصه منهم، ثم هربنا جميعاً. مضينا معه إلى سوق الحميدية.. كان ينادي بصوت عالٍ: «يا حيف يا شام.. هذول سوريين مو أجانب. لك هدول لحمنك ودمكن.. يا حيف يا شام. خايفين على تجاركتن؟ (ويقترّب من التجار).. لك تفوعلى المصاري».

اليوم عندما سمعت عن إضراب تجار الحميدية وإغلاق محالهم التجارية (قد تكون مجرد إشاعة) كدت أقول إن كلامه أصاب قلوبهم بشدة.

* * *

مساء الخير..

كيفك؟

البارحة زرت جارتى القديمة «زاهية» بعد أن علمت أنها خرجت من المعتقل. يدعونها اليوم «أم الثوار». هي الـ«قابلة» في دمر البلد. ورثت المهنة عن أمها التي علمتها كيف تساعد النساء في الولادة، وكيف تعطي المرضى الحقن مجاناً لعقود. وبسبب خدماتها التي لا تحصى، يعرفها كل أهل البلدة.

أما لماذا سميت بأمّ الثوار، فتلك حكاية طويلة ترويه ولا تملّ من تكرارها.

في أولى مظاهرات دمر، كان الشباب «ملبّكين»، كانوا لا يعرفون ماذا يهتفون، فصعدت على مسطبة عالية في الساحة وبدأت تهتف: «الموت ولا المذلة»... «اللي بيقتل شعبه خاين».

في المرة الثانية التي خرجت معهم لتهتف، أطلق رجال الأمن الرصاص على المتظاهرين، فقتل شاب وجرح كثيرون، فكانت هي الطيبة والممرضة والأم التي تعني بهم. دخلوا بيتاً أسموه «مشفى ميداني». وبما توفر لهم من مواد وبمساعدها استطاعوا علاج جراح الكثيرين، وكان أحدهم قد أصيب برصاصة ثقت رثته، فخاطرت بحياتها لإيصاله إلى المستشفى، واستخدمت كل مواهبها الكلامية لإقناع مدير المشفى بعدم تسليمه لجهاز الأمن. في المرة الثانية التي هتفت فيها أمام المتظاهرين قام أحد (العواينية) بتصويرها (قتله أحدهم في ما بعد برصاصة في رأسه، وقُيدت الجريمة ضد مجهول، لأن أحداً لم يذكر الحقيقة).

في ما بعد اقتحم رجال الأمن بيتها، واعتقلوا ولديها وزوج ابنتها، وهربت هي وولدها الأكبر، الذي انضم في ما بعد إلى الجيش الحر،

واعتُبرت هي زعيمة عصابة. أمضت «أم الثوار» أسبوعين وهي تنتقل من بيت إلى بيت مختبئة من رجال الأمن.. حتى عرفوا مكانها.

تسرد القصة التي تصفها بأنها مضحكة جداً: «قبل أن يدخلوا المنزل قلت للصبية صاحبة البيت: قولي لهم إني أمك.. شو اسم أمك؟ فذكرت لي اسم أمها بسرعة. ثم مضت لتفتح الباب، بينما دخلت أنا غرفة نومها. ثم سمعتهن يسألونها: مين معك في البيت؟، فقالت: معي أمي. سألوها: «شو اسم أمك؟ فارتبكت البنت ونسيت اسم أمها! (تضحك).. وأنا كنت أنتظر أن تذكره، لأنني كنت نسيتها أنا كمان! (تضحك).

ثم تكمل: «ثم مضيت معهم. كان الذي دلّهم عليّ موجوداً في مؤخرة السيارة، بصقت في وجهه حين نزلت. أوقفوني في ممر، وأنا معصوبة العينين، ساعات قبل أن يحققوا معي. كان هناك شباب كثيرون في الممر أيضاً، وكانوا معصوبي الأعين مثلي.. كانوا يضربونهم كلما مروا بجانبهم، وكان الشباب يرتجفون من الخوف والألم. بعد ساعات طويلة دخلت إلى غرفة الضابط المحقق الذي هدّني بالضرب، لكنني قلت له: أنا أكبر سنّاً من والدتك، وكما ترى، أعاني من الضغط والسّكري.. بس يا ابني.. نيالي إذا ربي بيكتبلي موتي على إيديك، بصير شهيدة.. بس هو استكثر عليّ الجنة!»

تضحك زاهية.. ثم تشتمهم، وتعود للضحك من جديد.

حينما تضحك «أم الثوار» تجلجل ضحكتها، وحين تتكلم يسكت الجميع.

غابت المرأة الستينية شهرين في أقبية الفرع. أخبرتنا أن السجينات كنّ ينادينها «تيتة» يعني جدتي. نسألها: ليش في بنات سجينات؟ - في كثير.. رايات وجايات.. ومن مختلف المحافظات..

تعود «أم الثوار» إلى عملها بعد خروجها من المعتقل، تنتقل من

بيت إلى بيت كي تساعد النساء في ولاداتهن، وتصف لغيرهن الأعشاب
لينجبن المزيد من الأولاد.

تقول: «لتعويض اللي راحوا»!

* * *

3 حزيران 2012

«كل جمعة ينتزع السوريون المزيد من بلادهم من جوف التّين.

وكل جمعة ينثرون من أعمارهم ضوءاً يحيي ما انتزعوا...»

زياد ماجد

مساء الخير..

اليوم، بينما كان الرئيس يلقي خطبته المطوّلة أمام مجموعة
المهرجين في مجلس الشعب، كان المتظاهرون في قدسيا يشيعون ابن
بلدتهم الذي قُتل في حلب. كان الشاب، ابن العشرين عاماً، مجنداً في
الجيش النظامي، وبقي كذلك إلى أن وُضع كالأخرين في ذلك المأزق
الصعب الذي عرفه آلاف المجندين في «الجيش العربي السوري»: «إما
قاتل لشعبك وإما قتيل». هذه المعادلة لا تحصل في العالم الحديث إلا
في بلاد اسمها سورية.

انشق الشاب عن الجيش النظامي والتحق بالجيش الحر، ثم أصيب
برصاصة في كتفه. كان يقضي فترة النقاهة في مكان تابع للجيش الحر
في حلب، عندما اتصل بأمه وأخبرها بأنه يتعافى وأنه بخير، لكنه لم
يكمل حديثه معها حتى شنت طائرات النظام الحربية هجوماً على
موقعهم وقتلت منهم الكثير.

لم يستطيعوا إحضار جثته، فأقيمت له جنازة رمزية!

هذا الصباح، بينما كان الرئيس يلقي خطابه على نواب الشعب، كما

يسميهـم، دخل أحدهم عيادة الدكتور عدنان وهبة وأطلق الرصاص على رأسه، وكانت أمهات كثر ينتحبن، وتذكرن أولاداً قتلهم ظالم لا يرحم.

في قدسيا، بينما كان الرئيس يلقي كلمته الطويلة جداً، كان الكثيرون يقفون على الشرفات وعلى الأرصفة معلّقين أنظارهم على التابوت الخشبي، وكان الشباب يتسابقون لحمله على الأكتاف، والدف يصدح وأغاني المشييعين كانت أقوى من كل صوت: «عريس الزين يتهنى.. يكتب علينا ويتمنى».. يمضون باتجاه والد الشهيد: «أبو الشهيد ارفع راسك.. أبو الشهيد كلنا ولادك».

لم يقطع المشييعون شارعاً، إلا الشارع الذي من المتوقع أن ينزل منه باص الشبيحة.

أما في دمشق فكان الحال مختلفاً تماماً. يا لدمشق كيف تصبح حين ينزل الرئيس من قصره العالي! تُقطع الطرق، ويُحاصر المكان الذي يكون فيه بدائرة قد يصل قطرها إلى ثلاثة كيلومترات وأكثر. لكن من يبالي؟! هو هناك الآن يتكلم مع نفسه، ونحن هنا مع هذا التابوت الفارغ، وهذا الصبي الذي غاب جسداً وبقي روحاً ترفرف على البلدة كلها. من يعبأ بكلام ذاك الرجل الغريب وهو يتحدث كذباً عن أولادنا بأنهم إرهابيون، وعاطلون عن العمل، يتظاهرون من أجل مئتي ليرة سورية.. من يعبأ به حقاً؟!

* * *

7 حزيران 2012

مساء الخير..

كأن النظام لن يتهاوى بفعل ضغط الثوار والمتظاهرين، بل بفعل الفساد الذي ينخر كالسوس في الدعامة البشرية التي تسنده.

أم أيمن جارتني القديمة وأم أحد تلاميذي، تسكن في حي من أحياء الموالاة، دعنتي لزيارتها احتفالاً بانتهاء العام الدراسي. في معرض حديثنا عن «الفساد»، وهو الحديث الوحيد المسموح به مع الموالين للنظام، إذ يدّعي معظمهم بأنه «معارض للفساد»، حدثتني عن أبو أسعد ذي السمعة السيئة في الحي. قالت إن الجيران «يعرفون حقيقته»، ثم شرحت لي كيف أن الرجل يحصل كل أسبوع على خمسمئة ألف ليرة سورية من رامي مخلوف، لكي يدفعها لمتّين وخمسين شاباً متطوعاً من الحي، لكي ينزلوا بين المتظاهرين ويضربوهم في حال «سبّوا عالرييس»، حسب قولها. قالت إن النّصاب أبا أسعد يوظّف لهذه المهمة أربعين شاباً فقط كي يحتفظ بالمبلغ الباقي في جيبه.

عندما خرجت من بيتها لم أستطع مقاومة فضولي في المرور أمام مكتب أبي أسعد الذي علّقت في صدره صورة لبشار وماهر وباسل والوالد الخالد. وأمام المكتب على الشارع تقريباً كان أبو أسعد يجلس ومعه بعض الرجال حول طاولة ووجوههم إلى الشارع وفي أيديهم كؤوس المته. بصعوبة أقيت عليهم نظرة سريعة، فعيونهم الوقحة أرعبتني.

في معركة الكتابة على الجدران يبدو أن النظام أيضاً هو الخاسر. فقد اكتشف بعض ضباط الأمن أن بعض عناصر الأمن والشبيحة يسرقون عبوات الدهان، التي يتسلمونها ليطلوا كتابات الثوار ويكتبوا فوقها عبارات تأييد، لذلك امتنعوا عن مدّهم بعبوات دهان عادي، بل راحوا يملؤون لهم العبوات بمادة الزفت الأسود، فهي أقل تكلفة، وكذلك غير مفيدة وبذلك لا تستأهل السرقة. واليوم أصبح هؤلاء يطلون أي كلمة يكتبها الرجال البخاخون ليلاً ببقع زفت كبيرة سوداء ومقرفة.

آه على دمشق!! لم يكن ينقصها إلا زفتهم الذي يبدو كرقع سوداء في ثوب مهترئ.

* * *

صباح الخير..

قبل اثنتي عشرة سنة، وفي مثل هذا اليوم، 10/6/2000، كنت قادمة من اللاذقية إلى دمشق. كنت مضطرة إلى العودة وحدي بسبب العمل، بعد أن تركت أصدقائي هناك يستمتعون بالبحر. توقفت الحافلة كالعادة في منتصف الطريق في إحدى الاستراحات. لكن ما إن فتح الباب حتى عاد السائق وأغلقه دون أن يبرر حرماننا من الاستراحة. كان السائق منزعجاً، وكذلك مساعده. وساد صمتٌ في الحافلة، لم يكن يقطعه إلا أصوات همسة هنا أو شهقات بكاء هناك. حاولت أن أسأل الرجل إلى جانبي عما حدث، لكنه لم يجبني، بل غادر مكانه ووقف إلى جانب مساعد السائق وبدأ يتحدثان بصوت هامس. صرت بعدئذ أستكشف الآخرين في الحافلة بكل حذر. ثم انتهت إلى أن الكثيرين نزلوا في الاستراحة ولم يصعدوا بعد ذلك. كنت أنظر إلى الوجوه في انعكاس زجاج النوافذ. في الجهة المقابلة، كان هناك شاب يدير وجهه للنافذة ويبيكي، وأمامي إلى اليسار امرأة وضعت يدها على خدها وحملت في الفراغ، وبين الحين والآخر كانت تمسح دموعها.

عندما اقترب مساعد السائق استجمعت شجاعتي وسألته: «شو فيه؟». جاوبني بلهجة حاسمة كأنه ينهرني: «ما في شي!»

مرّت ساعتان ونصف وهم يتناقلون همساً خبراً انتقل إلى الجميع تقريباً.. ما عداي. وما يكاد يصل الخبر إلى أحدهم حتى يصمت وتنغير ملامحه، ثم يدير وجهه ويبدأ بالبكاء.

بقيت الوحيدة في الحافلة، ربما، التي لم تعرف ماذا حدث. وكنت أحس بالغضب الشديد من تهمنيشي وعدم مشاركتي سرهم. ما إن وصلنا إلى أطراف دمشق حتى صدح صوت تلاوة القرآن من الراديو، عندئذ

بدأت أفهم الأمر. وقلت في نفسي لا بدّ أن أحد أفراد الأسرة الحاكمة مات.. نعم.. بالتأكيد مات واحد منهم، لكن من؟

زوجة الرئيس؟.. ابنه؟

كنت أقيم في المدينة الجامعية حين انتشر خبر وفاة باسل الأسد قبل سنوات، وكان الأمر مشابهاً لهذا تماماً. كنت أتساءل، وكان الوقت يمضي بطيئاً جداً.

عندما وصلنا كان صبري قد نفذ، فسبقت الجميع ونزلت من الحافلة، حتى أنني لنفاد صبري اصطدمت بالكثيرين منهم، ودون أن أعتذر أسرعرت إلى السرفيس الوحيد المتوفر، وما إن جلست حتى سألت رجلاً إلى جانبي: «شوفيه؟»، همس الرجل: «توفي الرئيس!..» ثم أضاف: «اسمعي!»

كان صوت المذيع متهدجاً وحزيناً وهو يذيع نبأ موت حافظ الأسد في الراديو. ثم بعد دقائق سمعت صوت المذيع الحزين نفسه يذيع خبراً عن اجتماع مجلس الشعب لتعديل الدستور، ثم بعد دقائق خبراً عن اجتماع للقيادة القطرية، ثم بعد دقائق خبراً عن اختيار بشار الأسد أميناً عاماً لحزب البعث، ثم بعد دقائق رفع رتبته العسكرية إلى فريق. ومع كل خبر، كان المذيع الحزين ينقله، كنت أنظر إلى وجوه من حولي، كانوا خائفين جداً ويتجنبون النظر واحدهم في عيون الآخرين. ولم أصل إلى جسر الرئيس حتى أصبح بشار الأسد «الفريق والقائد العام للجيش والقوات المسلحة والرفيق الأمين العام للحزب والسيد الرئيس!»

وكان هناك الكثير من الضحك الذي كنت أقاومه في داخلي.

عندما نزلت من السرفيس كانت الشوارع فارغة، ومنطقة جسر الرئيس، التي هي من أكثر المناطق ازدحاماً في دمشق، خالية تماماً إلا من بعض الرجال هنا وهناك، اكتشفت في ما بعد أن معظمهم من

عناصر الأمن. لم يكن هناك أي باص ليقلني إلى بيتي في دمر البلد، وكان عليّ أن أمشي مسافة طويلة جداً. مشيت كفراشة، وكنت أحس بأن لدي نشاطاً استثنائياً.

بعد قليل اقتربت من شاب وسألته: «شو في؟».

- «توفى الرئيس» قال بحزن. ثم نظر إليّ منتظراً ردة فعلي، لكنني تجاوزت رده بسرعة وسألت: «طيب ليش ما في باصات؟».

كررت السؤال على غيره: «شو في؟» وأحسست بنشوة غامرة من لعبتي تلك، لذلك صرت أكررها كلما مررت من جانب أحدهم.

نعم. مات حافظ الأسد. مات الرجل «الأبد» في ذلك اليوم. الرجل الذي تعودت طوال حياتي الدراسية في المدرسة، لمدة اثني عشر عاماً، أن أقسم له كل صباح: «قائدنا إلى الأبد.. الأمين حافظ الأسد».

هو مات.. لكن سكان دمشق غادروا الشوارع إلى بيوتهم، وأنا كنت أمشي إلى بيتي في ضواحي دمشق، وأسأل بين الحين والآخر أي رجل أصادفه: «شو في؟»، ليؤكد لي أنه مات..

* * *

11 حزيران 2012

مساء الخير.. أو صباحه..

هناك الكثير من القصص يرويها الناجون القادمون من حمص، أهمها حديثهم عن الرجال الذين تركوهم هناك، إما أحياء أو أمواتاً أو معتقلين أو مخطوفين، أو احتمال كل ذلك تحت اسم «مجهولي المصير». في حارتي سكنت عائلة قادمة من حي العدوية في حمص. هو حي (مختلط) كما وصفوه، تعيش فيه عائلات سنية وعلوية ومسيحية. قبل «مجزرة العدوية»، التي يبدو أن لا معلومات دقيقة حولها، دخل رجال

الأمن الحيّ أو الشارع. كانوا، وفق حكاية أم منال، يلبسون الخوذ العسكرية ويحملون أسلحة ثقيلة. تقول إنهم ما إن دخلوا الحي حتى بدؤوا يطلقون النار في كل الاتجاهات، فاختبأ الناس في بيوتهم. ثم راحوا بعد ذلك يقرعون الأبواب ويسألون - حسب قولها: «شو دينكم؟»، فإن أجابوا «مسيحيون»، قالوا لهم ادخلوا وإياكم أن تفتحوا أبوابكم أو تنظروا من النوافذ مهما حصل، وأما إن قال لهم رجل إنه «مسلم»، أخذوه وفتشوا بيته وأهانوه أمام عائلته. تقول إن أحد جيرانها رجل مسلم، لكنه قال لهم أنه «مسيحي».. قال لها في ما بعد: «معليش الله بيسامحني».

داهموا بيت أم منال وأخذوا كل الذكور، أخذوا زوجها وأولادها وأحفادها وأزواج بناتها. اعتقلوا تسعة رجال من منزلهم ذي الثلاث طبقات. حفيدها الوحيد، الذكر الناجي، عمره إحدى عشرة سنة، وضعته خلفها وتوسلت إليهم كي يتركوه. وما إن وضعوا الرجال في سيارة شاحنة تشبه السجن المتحرك، حتى عادوا إلى النساء وقالوا لهنّ: «الويل لكنّ إن أغلقتن الأبواب!».

تقول أم منال: «أخذوا من الحي خمسة وثلاثين رجلاً لا يُعرف شيء عن مصيرهم حتى الآن».

أما أم منال ونساء العائلة فقد هربن ليلاً بما استطعن حمله من المنزل الذي حرّم عليهنّ تسكير أبوابه.

منذ أسبوعين كنت في زيارة لهنّ، عندما اتصل أحد أقاربهن وقال: إن أحد الذين خرجوا من فرع الأمن العسكري بدمشق سمع أحدهم يذكر اسم زوج منال. صرخت منال من فرحتها بالخبر، ثم بكت وعانقتنا، وعانقت ابنتها الصغير الذي لم يكمل ربيعه الأول. ثم بدأنا نحلل الخبر السعيد: «إذا كان زوج منال على قيد الحياة فلا بدّ أن الباقيين أيضاً على قيد الحياة. كنت أنظر إليهن وأقول ليت هذا الخبر البسيط والبائس

يكون صحيحاً». لكن في زيارتي التالية بعد أسبوع وجدت أم منال تبكي، هي مريضة ولم يبق في فمها أسنان بفعل ارتفاع السكر، وعيناها أيضاً أوشكتا على الانطفاء. قالت: «أحد الأقارب أرسل للنساء خبراً بأن (تمسكن العدة)».

وهكذا..

هذا ما تبقى من رجالهن: خبرٌ، أو جزءٌ من خبر، أو بضعة أيام تختفين فيها عن الأنظار وتحتجبين عن رؤية الرجال. ست أراهم والكثير من الحفيدات.. وامرأة مفاجوة تنطفئ عيناها وهي تذكرهم وتبكيهم واحداً واحداً.

* * *

12 حزيران 2012

مساء الخير أو صباحه.. لا يهم..

دوي الانفجارات وصوت إطلاق الرصاص يملأ فضاء دمشق وريفها. منذ قليل تحدثت مع صديقتي في مخيم اليرموك، قالت إن «عبوة ناسفة انفجرت في الشارع.. كانت ربما صغيرة، لكن سرعان ما جاء رجال الأمن وبدؤوا بإطلاق الرصاص العشوائي في الهواء مما استفز الناس، لأن المخيم مزدحم ويمكن أن يتأذى كثيرون من سلوكهم الذي لا مبرر له».

أردفت: «تناوش الناس كلامياً مع رجال الأمن، وسرعان ما انطلقوا في مظاهرة بدأت تكبر وتكبر أمام عيون رجال الأمن الذين استمروا في إطلاق الرصاص في الهواء. وما إن وصلت المظاهرة إلى منتصف المخيم حتى جاء الشبيحة.. ثم... انتهت المظاهرة». سألتها: «هل تأذى أحد؟».

قالت: «من الانفجار لا، لكن من الشبيحة.. نعم».

جرح وأصيب الكثيرون على ما يبدو. كما أنهم اعتقلوا الناس عشوائياً. كل من وجدوه أمامهم أخذوه!

في نهاية حديثنا قالت لي: أتذكرين أم وليد من الحجر الأسود؟.. أخذوا اليوم أصغر أبنائها من باب قاعة الامتحان. هو طالب بكالوريا (ثالث ثانوي).

وليد!

ذهبت مع صديقة لي قبل سنة تقريباً لزيارة أم وليد في الحجر الأسود. كانت صديقتي قد أخبرتني بأن وليد، الابن البكر لأم وليد، ظهر على شاشة تلفزيون الدنيا قبل أيام، واعترف بأنه «رئيس عصابة مسلحة»، وبأنه أخذ مالا من أمير قطر، ووّرعه على عصابته وما إلى ذلك.

ما إن وصلنا لزيارتها في ذلك اليوم حتى نادت أم وليد على ابنها البكر، وكان قد خرج من المعتقل قبل يوم من زيارتنا ولم نكن نعرف.

سألته: «كيف يعني رئيس عصابة ويخرجونك من السجن؟».

فجلس وحدثنا إنه بعد مضي أربعين يوماً على سجنه في زنزانة منفردة في أقسى الظروف، نادوه وخيروه بين أمرين: «أن أظهر على شاشة التلفزيون أو أن أظهر على الإنترنت».

طلبت منه أن يشرح أكثر.

«قالوا لي بتطلع على شاشة التلفزيون وتقول إنك رئيس عصابة مسلحة، أو تظهر صورتك على الإنترنت في «اليوتيوب» لتراه أمك؟ لأننا ما إن نخرج جثتك لأهلك حتى نجد صورة الجثة على «اليوتيوب».. أليس هذا ما يفعله رفاقك السفلة؟

«لا.. بطلع على التلفزيون» أجبتهم.

وهيك فعلاً حلقوا لي لحيتي التي كانت مرعبة وشعري. أخذوني إلى الحَمَام وكنت لم أغتسل منذ اعتقالي. تلك اللحظات كانت أجمل لحظات حياتي. اعتبرتها استراحة قبل العودة إلى الزنزانة من جديد.

وضعوني أمام الكاميرا، وكان أحدهم يسألني وكان عليّ أن أنظر إلى لوحة إلى جانب الكاميرا كتب عليه الجواب الذي كان عليّ قراءته.

نعم، قلت إنني زعيم عصابة مسلّحة، وإننا كنا نقتل المتظاهرين ورجال الأمن لإثارة الفتنة، وقرأت أنني أخذت مبالغ بالدولار وباليورو من أمير قطر وغيره. ورداً على سؤال لمن أعطيت المال، وضعوا أمامي على اللوحة أسماء كان عليّ أن أتلوها الواحد تلو الآخر. لم تكن تعني لي شيئاً، فأنا لا أعرف أصحابها. لكن بين الأسماء مرّ على نحو مفاجئ اسم معمر، صديق طفولتي! وهو من أروع الرجال.. وكان مريضاً! لم أستطع نطق الاسم. فبدؤوا يعيدون تصوير المشهد، وكنت أصرّ على عدم ذكر اسمه ثم.. في النهاية ذكرته.. تحت التهديد. نعم ذكرت اسم أعزّ أصدقائي، للأسف..

سألته: «كيف تعامل معك أصدقاؤك وأهل الحي.. ألم يزعجهم أنك ربما خنتهم؟».

قال: «كان لدي إحساس بأنهم لن يتحدثوا إليّ بعد اليوم، بل إنهم سيعاقبونني على فعلتي، ولكن ولمفاجأتي بعد ساعة من وصولي إلى المنزل اجتمعوا هنا أمام الباب وهتفوا لي وحملوني على الأكتاف، ليذكروني بأنني ما زلت قائد المظاهرات كما كنت. لكن معمر لم يكن بينهم... للأسف».

اعتقل معمر في ما بعد بتهمة أخذه مالاً من رئيس عصابة مسلّحة كان يأخذ المال من أمير قطر وغيره من الأعداء.

* * *

مرحباً من السويداء

في السويداء يصعد الكثيرون إلى سطوح منازلهم مساءً ويوجهون أنظارهم نحو الغرب. فما إن تمضي الشمس في سباتها وتختفي هناك حتى تلمع الأضواء على صخور اللجة كأنها ألعاب نارية. لكن قلوبهم لا تبتهج هذه المرة، فتلك الأضواء قتابل هاون أو صواريخ تطارد شباباً في مستقبل العمر لتقتلهم.

«اللّهُ يستر!»، تردد امرأة: «يا رب تحمي هالشباب!».

لا تستطيع أن تحدد بالضبط أي «شباب» تقصد، فالواقع يقول إن أبناءها لم يخطرطوا كما ينبغي في الثورة ليكونوا هؤلاء، وليسوا مدافعين عن النظام أيضاً كما يجب ليكونوا أولئك. لكن برغم ذلك ما زالت جثامين شباب السويداء تصل في توابيت مغطاة بالعلم الأحمر الذي يدل على أن هذا الشاب مات في معركة النظام لا في معركة الثورة.

الكثير من الناس ينظرون إلى القصف المدوي على اللجة، وهي النهر الصخري الممتد بين درعا والسويداء، وأيضاً هو المكان الذي ارتبط في ذاكرتهم بالأجداد والبطولات.

السويداء التي قدمت ثلثي شهداء سورية في معارك الاستقلال، هي نفسها الآن المحافظة الصامتة والخائفة.

لكنهم يحدثونك أيضاً أنه قبل الربيع السوري بقليل جاء الرئيس لزيارتهم، دخل بيوت بعض العائلات، ويقال: غمّس لقمة صغيرة من طعامهم. أعطى بعض الفلاحين الفقراء مبلغاً من المال لمرة واحدة، ومضى إلى قصره تاركاً الناس البسطاء يتحدثون عن تواضعه وكرمه وحبه للدروز! والدروز الذين يشكّلون أقل من نصف مليون في سورية هم اليوم خائفون.

في ساحة الشعلة وقفنا مساء السبت الماضي. كنا مجموعة نساء. حملنا لافتات كتبنا عليها عبارات تذكّر الناس بأن مدناً أخرى تحاصر وأولادها يموتون.. وذكّرنا الأمهات والآباء بسرّاويل أولاد الحولة المبللة من الخوف قبل الذبح. إحدى اللوحات كُتِبَ عليها: «صمتكم يقتلنا»، وعلى أخرى كُتِبَ: «كلمتك اليوم ستحدث فرقاً».. لكن لا حياة لمن تنادي!

ليس سهلاً أن تعتصمي في السويداء دون أن تُضربي من قبل الشبيحة. هؤلاء من الصعب أن تميّزيهم، فهم سائق التاكسي وبائع السندويش وصاحب المطعم والشيخ أحياناً. معظمهم يقوم بعمل تطوعي من أجل سلامة طائفته أكثر مما هو من أجل الأسد (وفق اعتقاده). الخوف يعيد الناس إلى غريزة القطيع.

لكن يقال إن الشبيحة بدؤوا يتراجعون على نحو لافت، والدليل ما حدث يوم السبت. فما إن بسطنا لافتاتنا حتى ركض شاب حافي القدمين باتجاهنا. كان الشاب المراهق يلبس سروالاً قصيراً فضفاضاً وقميصاً بلا أكمام. كأنه كان ينام قيلولته الظهرية فقام أحدهم بإيقاظه فجأة. ركض الصبي باتجاهنا وبدأ بمحاولة انتزاع اللافتات بحركات عصبية كما لو أن مساً من الجنون أصابه. كان يردد بصوت عالٍ، وكانت الكلمات تخرج من فمه بسرعة فائقة: «بالروح بالدم نفديك يا بشار».. ثم يغيّر الهاتف وكأنه تذكر أن هناك هتافاً آخر له لحن أجمل: «غير ثلاثة ما نختار: الله وسورية وبشار.. بالروح.. بالدم»..

بصراحة أثار لدي رغبة في الضحك للحظات. لكنّه كان محارباً شرساً ونحن أيضاً كنا كذلك.

دفعنا الصبي المراهق بعيداً، فذهب باتجاه الرجال الذين تجمهروا وبدأ يحرضهم على مهاجمتنا. لكن الرجال لن يتجرؤوا على ذلك، فالعُرف هنا فوق القانون. ولن يجرؤ رجل على ضرب امرأة في الشارع وعلى مرأى الناس.

غالباً لا يتدخل رجال الأمن بما يجري في السويداء على عكس ما يفعلون في المدن السورية الأخرى حيث يتعمدون إثارة غضب الناس وحنقهم. في معظم المظاهرات التي حدثت هنا كان رجال الأمن يتركون للشبيحة مهمة ضرب المتظاهرين حتى كسر عظامهم. فالنظام يدّعي حماية الأقليات ويبدو أن الكثيرين هنا صدّقوا ذلك.

لن أنسى أن أقول لك إن الاعتصام انتهى على خير، لكن أحدهم التقط صوراً لنا وسجّل أرقام سياراتنا وسيتم عقابنا منفردين.

الله يستر!

* * *

18 حزيران 2012

صباح الخير..

قدسيا اليوم مدينة أشباح.. أهلها لم يناموا ليلة أمس. أولادها الصغار فزعون، ومحلاتها مقفلة، وشوارعها معتمة، وشبابها غاضبون. كلهم دخلوا الليلة إلى بيوتهم وأنزلوا الستائر على أمل أن لا يحضروا حفلة رعب جديدة. ليلة البارحة وعندما كانت المدينة تُقصف بمدافع الهاون، صرخ أحد الشباب: «أيها السفلة هناك بين السكان موالون.. فعلاً هذا النظام ليس له صاحب!».

كانت القذائف تسقط على قدسيا دون أن تفرّق بين العدو والصديق. أُحرق معمل البيرة، وفي اليوم التالي كان الموالاة يقولون إن السلفيين أحرقوه لأن شرب الخمر حرام. لكن آثار مدافع الهاون التي سقطت ونتج عنها إحراق المعمل لا تحتاج إلى لجنة تحقيق ولا محكّمين.. يكفي أن تسمع قصص بعض السكان القريبين من المعمل لكي تعرف أن قذائف الهاون العمياء لم تسأل عن ممتلكات الدولة ولا عن ممتلكات السكان.

في الواحدة ليلاً بدأ يصدر صوت الجوامع بالتكبير والدعاء لله لكي يغيث المساكين، لكن الله لم يستجب.. ظلت مدافع الهاون تقصف حتى الخامسة صباحاً.

أحد الرجال علا صوته من الجامع موجهاً كلامه لضباط المساكن القريبة: «أيها الضباط.. أنتم رأيتم بأعينكم أننا لسنا مسلّحين.. نحن دعاة حرية وكرامة.. ارجعوا عن موقفكم الداعم للأسد.. هذا الرجل يريد حرق البلاد».

كان صوته قوياً وواضحاً وكان سكان المساكن يجلسون خلف نوافذهم خائفين.. أحد الشباب المؤيدين لم يستطع تحمّل أن يقال ذلك عن الأسد، فخرج إلى سطح بيته على الجانب المقابل لقدسيا وأفرغ مخزن رشاشه في الهواء.

في اليوم التالي، في الساحة المضروبة حيث فتحت بضع محلات قليلة لبيع الطعام، كانت امرأة تنتقل بين الخضروات تشير إلى كومة من نفايات الخضار فيها بعض أوراق الخس التالفة وبعض حبات البندورة المهترئة وتقول للبائع: «ممكن أخذهن؟».

هذه المرأة جاءت من حمص منذ ثلاثة أشهر طلباً للأمان والكرامة، فكان أن سلبها القصف على قدسيا آخر ما تبقى لها من أحلامها بالسلامة والطعام لأطفالها. عادت ربما لتصنع لأولادها صحن فتوش، بعض أوراق الخس التالفة وحبّة بندورة مرمية بالمصادفة إلى جانب الأوراق وخبز يابس وقليل من الملح.. ويُحضّر طعام الجائعين.

في الثمانينيات مررنا بوقت عصيب، يومذاك كانت أمي كل يوم تطعمنا الفتوش وتبدأ بالحديث عن فوائده. كانت تقول: «الذي اخترع الفتوش أكيد من سورية...».

* * *

كيفك صديقتي؟

رداً على سؤالك إن كانت الثورة تحوّلت إلى حرب طائفية. من وجهة نظري أجيب: لا، وإن كانت بعض أحياء دمشق تحوّلت فعلياً إلى كانتونات طائفية، خاصة الأحياء الموالية منها، إلا أنها لم تصبح ظاهرة بعد، خاصة في المناطق المنتفضة.

إنه الخوف!

ستكون رسائلني بعد اليوم عابقة برائحة الخوف.

في سياق سؤالني عن الموالين في قدسيا، الذين كانت هذه المدينة لزمن طويل وطنهم الوحيد، تأتيني الإجابات:

– «أنا في طرطوس».

– «أنا استأجرت بيتاً في جرمانا».

في سياق بحثك عن الخلاص من التجيش الطائفي تبحثين عن (الخلاسيين)، أي الذين تزاوجوا وتحابّوا وكانوا من طوائف مختلفة. أبحث مثلاً عن سامر، لأسأله عن حبيبته رنا.

يقول إنها تركته بعد أن أهانتة: «لما بدّي اتزوج رح اتزوج علوي!».

أبحث عن توفيق، شاب جاء من إحدى ضيع الساحل، ولد في عائلة علوية لكنه لم يكن يوماً طائفيّاً، فيجيبونني إنه في المستشفى، اعتدى عليه أهل ضيعته منذ أيام بالضرب المبرح لأنه خالف رأيهم وساعد (الإرهابيين). وسوف يترك توفيق، مثل الكثيرين قبله، قريته الموالية جداً ويأتي إلى دمشق، ومن ثم، مثل الكثيرين قبله، سوف أجد اسمه على صفحة «فيسبوك» يشتم النظام والطائفية، لكن من بيروت أو القاهرة وربما أبعد. وبما أنني في النهاية لا أجد سوى قصص الحكايا، سأروي لك حكاية غياث.

يسكن غياث في إحدى القرى المحيطة بمدينة «الحقة». بينما كان الشبيحة من أهل قريته والقرى المجاورة الأخرى يحاصرون مدينة الحقة، تجاوباً مع دعوات أشخاص مثل الممثل «بشار إسماعيل»، الذي دعاهم بكل وقاحة عبر إحدى المحطات الإذاعية:

«جيشنا المقدس لا أحد يسأله ماذا تفعل لتطهير الوطن من الإرهابيين (ثم يعدد القرى المحيطة بالحقة واحدة واحدة)، ويستنهض أهل القرداحة البواسل (وفق وصفه): «لا تسمحوا للمراقبين الدوليين بدخول الحقة، فلا أحد له الحق في سؤال جيشنا المقدس ماذا تفعل».

بينما كان شبيحة ضيعته وبعض أقاربه يحاصرون المدينة المدمرة، ولا يسمحون للنساء والأطفال بالمغادرة، كان غياث وبعض أصدقائه يقومون بتهديب العائلات وإنقاذهم من أيديهم.

تقول الحكاية إن غياث طلب من زوجته أن تغادر البيت لزيارة أهلها، خوفاً من أن تخبر الشبيحة بما يفعله، ثم جاء بأسرتين، امرأتين ومعهما أولادهما لبيبتوا في منزله حتى يؤمّن لهما في الصباح خروجاً آمناً من المنطقة. يقول إنه بينما كان يدّلهم على الأشياء في المنزل ويهمّم بالمغادرة سألته إحداهن: «أنت علوي؟».

– «نعم».

وما إن نطق بجوابه حتى سارعت المرأتان إلى ضمّ أولادهما والبكاء وهن يتوسّلن إليه: «والله العظيم نحن ما عملنا شي.. والله ما عملنا شي لا تؤذينا.. الله يوفقك...».

بكى غياث وهو يروي الحكاية على سامعيه. غياث الذي أمضى أكثر من عشر سنوات في سجون النظام لأنه طالب بالديمقراطية في الثمانينيات، قال لمن نقل الحكاية: «هذا الموقف هو أقسى ما مرّ عليّ في حياتي على الإطلاق».

وهكذا تكثر الحكايات عن الخوف المتبادل.. ويكبر الشقاق.
يتبع في رسالة قادمة..

* * *

20 حزيران 2012

مرحباً يا صديقتي..

ذكرت لك سابقاً أن بعض الأحياء أصبحت كانتونات طائفية مغلقة.
لكن يبقى هناك الكثيرون ممن لا يستطيعون تبديل مكان سكنهم
والتجاوب مع ما يفرضه الواقع المؤلم والخوف المتبادل.

بالنسبة لي العيش في منطقة مختلطة أو متنوعة إثنيّاً أمرٌ يمنحني
الإحساس بالأمان. لكن بالمقابل عند نشوب أي نقاش قد تشب معركة
كلامية حامية الوطيس.

في حارتنا نضطر أحياناً نحن النساء للالتقاء على شرفة إحدانا
من أجل مراقبة أولادنا وهم يلعبون. كلما نظرت إلى أطفال الحارة أشعر
بالتفاؤل. عالمهم أكثر انفتاحاً وتسامحاً من عالمنا!

كنا نشرب القهوة بينما كان أولادنا يلعبون غير أبهين بأصوات
الرصاص والهاون الذي يبدو أنه يتساقط منذ مدة على الهامة. في مثل
هذه المناسبات نتحدث عادةً عن الطبخ والعمل والعلاقات الزوجية
والأولاد، ونادراً ما نتحدث عما يجري. لكن هذه الأيام أصبح الحزن
والقلق يخيم على الوجوه والأحاديث. تحدثنا هذا المساء عن الرجال
الذين يقلقون نومنا بأصوات طلاقات رشاشاتهم في الحارة. تمنينا جميعاً
أن يناموا ويريحونا من عادتهم التي بدأت تصبح يومية.

كنا ست نساء من أربع طوائف ومناطق مختلفة. سكنا هنا في
العشوائيات لأننا لا نملك أن نشترى بيتاً في مكان آخر. واليوم نحن لا

نستطيع ترك بيوتنا حتى لو دُمّرت فوق رؤوسنا لأن معظمنا لا يملك مكاناً آخر يلجأ إليه. تحدثنا عن الشبيحة وسلوكاتهم السيئة في الحارة. عن الشباب الذين يتسلّون ليلاً بقنص حتى القطط المسكينة التي تحاول اجتياز الدشم الترابي.

لكنني صعقت حين بدأن يتحدثن عن أحد سكان الحارة، عسكري سيئ الصيت. ذكرن لي إنه تباهى أمام رجال الحارة قبل أسبوع بأنه اغتصب امرأة من ريف دمشق أمام زوجها وأطفالها!

قالت إحدهن إن الرجال جميعاً استاؤوا من حديثه وباتوا يخافون على بناتهم من الظهور أمامه أو الاقتراب من بيته. كان كل سكان الحارة يتحدثون عن الأمر في جلساتهم طوال أسبوع، وأنا لم يكن لي علم بذلك! فكرت للحظات أن أصرخ على صغيرتي، فندخل المنزل ولا نخرج بعدها.. لكنني لم أفعل!

بدأن بكيل الشتائم للرجل المغتصب وللذين سكتوا عن جريمته ولم يعاقبوه. خاصة أن هناك ضباطاً برتب عاليه في الحارة، ويجب أن يكونوا قد سمعوا بالأمر. أجمعنا على أن الاغتصاب بحد ذاته جريمة، لكن الاغتصاب أمام الأولاد هو جريمة مضاعفة.

أن يعيش بيننا رجل ليس مجرمًا فقط بل ويتباهى بجريمته أمام رجال الحارة الآخرين، أمرٌ أثار استياء الكثيرين وسخطهم، لكن أحداً من رجال الحارة لم يتجرأ حتى على إبداء امتعاضه أمامه.

في نهاية اللقاء تحدثنا عن حلمنا المشترك بمستقبل كريم وآمن لأولادنا. لكننا فجأة وجدنا أنفسنا نتحدث عن الرئيس وحاشيته. يجب أن تعلمي أنه كان من المستحيل قبل أشهر أن تتقبل اثنتان منهنّ على الأقل فكرة أن يكون هناك من لا يريد «الأسد». الليلة تحدثنا عما يجري، عن القتل وعن الرصاص العشوائي والهاون الذي يسقط (خطأً) وعن

الخطف والقنص، تحدثنا عن شهداء الجيش وشهداء المظاهرات وعن
اليتامى الكثيرين والأرامل الكثيرات. وفي نهاية حديثنا المسائي، وعندما
تسألت إحداهن: «وبعدين شو آخرتها؟»، اتفقنا جميعاً على أن الحل هو:
«رحيل الرئيس».

* * *

25 حزيران 2012

رغبتي الملحة في سرد حكاياتي تسييني السؤال عن أحوالك..
كيفك؟ بتمنى تكوني بخير.
سيسخر مني الكثير من أصدقائي المثقفين إن علموا مدى حماسي
لهذه المهمة!
عادت رنا من حمص بعدما جاءت بأثاث منزلها وحاجيات أولادها.
حدّثتني إنها مرّت على اثني عشر حاجزاً أمنياً حتى وصلت إلى دمشق.
«أمضيت ثلاث ليالٍ في مخيم اللاجئين الفلسطينيين في مدينة
حمص، حتى حصلت على ورقة الإذن الرسمي من المحافظ لنقل
أغراضي في شاحنة. لم أنم خلال هذه الأيام إلا ساعات قليلة».
الحماصرة اليوم يترحمون على أيام القصف المدفعي ويترحمون
على أيام الدبابات... فالطائرات المقاتلة التي تملأ السماء، الطائرات
اللعينة، تحرم الناس النوم.
هناك أسباب كثيرة أيضاً تمنعك من النوم، فصراخ الأطفال وبكاؤهم
ليلاً، بسبب خوفهم وعدم قدرتهم على النوم، قد يصيبك بالجنون.
سمعت أحدهم يصرخ ليلاً: «لك منشان الله.. لك منشان القرد،
خلّوا هالطيّارات توقف قصفاً!».

كانت الكتل الكبيرة تنزل من بطن الطائرات القريبة جداً. تستطيع أن تعرف أين ستنزل، ويكاد قلبك يخرج من مكانه خوفاً من أن تسقط بالقرب منك».

قصّت لنا حكاية رحلتها من حمص إلى دمشق، وكيف أن الجنود على كل حاجز كانوا يتعمّدون إهانتها ويسخرون منها ومن أغراضها: «لوين هربانة؟.. فيه مسلحين بين هذا الأثاث؟». وعند كل حاجز يصعد أحدهم إلى الشاحنة ويدوس بحذائه العسكري الثقيل بقسوة متعمدة على الأغراض.

«أخيراً وصلت إلى دمشق، لكن الجنود على الحواجز كانوا قد كسّروا الطاولة الثمينة، ومبرّد المياه، وباب الغسالة الكهربائية، والكثير من الأدوات المنزلية الأخرى، بطريقة غير قابلة للإصلاح. كما أنهم داسوا على ثيابي وكانوا يرفعونها قطعة قطعة ويسخرون مني».

عادت رنا إلى دمشق، لكنها لم تفرح بنجاة أغراضها من الحرق أو السرقة، فأغراضها كما تقول «شقاء عمرها»، كانت مهشّمة ومهانة مثلاً تماماً..

* * *

4 تموز 2012

مساء الخير..

اعتُقل زوجي منذ أسبوع وتركت بيتي. هذه أخباري الجديدة باختصار.

عندما بدأت بالكتابة لك، وقررت أن أكون مراسلة من سورية، تبلغك حال أهلها وبيوتها وتفاصيل أناتها الصغيرة، كنت أظن أنني سوف أبقى حيادية، أنظر عن قرب أو عن بعد لكن لن يصيبني أي سوء. لكن ظنّي كان خاطئاً!

الاسم المستعار الذي أكتب به، ومحاولاتي إخفاء الأسماء الحقيقية للأشخاص والمناطق، ذلك كله لم يجد. لن يسقط هذا النظام قبل أن نشرب جميعاً من كأس المرارة، كلٌ حسب حصته.

تعرفين بأني خضعت للعلاج الكيماوي بسبب مرض السرطان الذي اكتشفته منذ عامين. بعد كل جرعة كنت أصل إلى لحظة أشتي فيها الموت. السوريون يعانون اليوم من داء خبيث، وعلينا تجرع علاجنا المرّ والصعب جداً للتخلص منه.

اعتُقل زوجي، لا لأنه ناشط، ولا لأنه مسلّح، وهو بالتأكيد ليس إرهابياً ولا سلفياً، إنه بكل بساطة يدفع ثمن شهامته. تهمته مساعدة متظاهرين على الفرار من أيدي الشبيحة ونقلهم في سيارته.

أما بيتي فليس في دوما، التي تُدك منازلها من الطائرات، وهو أيضاً ليس في زملكا، التي قتل فيها الكثير من الشهداء وهم يشيِّعون رفاقهم. ولا حتى في داريا، إنه في إحدى بلدات ريف دمشق التي كانت، لوقت قصير، خارج دائرة الحراك.

الثورة السورية كالحريق، ستمرّ على الجميع حتى تنتصر، تماماً مثل عقوبات النظام الجماعية التي لم تعد تستثني أحداً.

* * *

5 تموز 2012

صديقتي القادمة من اللاذقية تتكلم عن أحوال الناس هناك. تقول إنها ستصاب قريباً بالجلطة، وأنها لم تعد تخرج كثيراً من المنزل. تقول إن أهل بلدتها الموالون هددوها بختف طفليتها وإخفائهما تحت الأرض، إن كررت حديثها المتعاطف مع الإرهابيين الذين، وفق وصفهم، «يريدون إسقاطهم وإسقاط الدولة».

كانت صديقتي تتحدث عن تشاؤمها، وعن أننا دخلنا نفقاً لن نخرج منه لسنوات طويلة، حين نادت عليها ابنتها المراهقة. قالت لي في ما بعد إن ابنتها أنبأها على حديثها المتشائم، وقالت لها: «ألا ترين كيف أنها لا تعرف شيئاً عن مصير زوجها المعتقل وقد هجرت منزلها مع الصغيرتين، ومع ذلك انظري إليها كيف تبدو متفائلة!».

اليوم مساءً اتصلت بي صديقة أخرى دومانية نزلت منذ أسابيع من بيتها، وتسكن اليوم في حرسا لتواسيني في مصابي، قالت: «كنت أتمنى أن أراك، لكن أخي وولديه الشابين اختفوا منذ يوم أمس. ذهبوا لإلقاء نظرة على بيتهم في دوما ولم يعودوا حتى الآن. يقال إن جهة مجهولة اختطفتهم!»، ثم أنهت حديثها: «لا تحزني صديقتي.. على الأقل أنت تعرفين مكان زوجك!».

* * *

7 تموز 2012

مرحباً.. كيف الحال؟

أطلقوا سراحه البارحة قبل منتصف الليل بنصف ساعة. زوجي الذي بقي ثمانية أيام في المعتقل، بتهمة نقل متظاهرين في سيارته، زار أربعة فروع أمنية، خرج بعد أن وضعوا اسمه في ملف كتب عليه: «ملف الإرهاب».

اليوم اكتشفت أن لديه مرضاً جدياً! حتى الطبيب لم يفهم أي نوع من الحشرات يمكن أن يكون بهذا الإجرام. عندما خرج كان القمل يختبئ في شعره وينحشر في ثيابه الداخلية. عملنا طقساً عائلياً جديداً، شربنا البيرة ونحن نحرق ثيابه الوسخة، وغنّينا نحن والأولاد للحرية.. حدثني عن شباب تركهم هناك يتكدّسون في غرف تكاد لا تتسع

لربح عددهم. يقول: «يقف الشباب بالتناوب، مجموعة وراء مجموعة، لكي يتاح للبقية أن يناموا على بلاطات، نتأ الحصى منها بسبب احتكاكها بأجساد المعتقلين وتتصاعد منها رائحة نتنة لا تحتمل. أكثر ما يعانيه المعتقل بعيداً عن التعذيب هو الازدحام وعدم توفر المكان.. حتى سقف (التواليت) المحشور في زاوية المهجع، والذي لا تتجاوز أبعاده متراً واحداً بنصف المتر، يجلس عليه أربعة رجال. المضحك أنه عندما انتقلنا إلى مهجع آخر ففكر أحدهم بالجلوس هناك، ففوجئ بأن التواليت بلا سقف».

لم يحققوا مع زوجي إلا في اليوم الثامن، كأن الاعتقال ليس من أجل الحصول على المعلومات، بل من أجل العقاب والتعذيب وهدر الكرامة فقط.

* * *

10 تموز 2012

يناولني كأس الماء، الشَّبَّيح الذي ضربني مرة في أحد الاعتصامات السلمية. شاب لم يكمل عقده الثاني، وهو مساعد السائق في الحافلة التي كانت تقلني من السويداء إلى دمشق.

كان هاتفه يرنّ كل بضع دقائق فيصعد صوت رنّته: «العين بالعين.. والسن بالسن». مقطع يتكرر من خطبة للرئيس. وما إن ينتهي من المكالمة حتى يبدأ حديثه مع السائق. يقول بصوت يتقصّد إسماعه للركاب: «الجيش (الكرّ) موجود في التضامن.. رح يسحقوا الجيش الكرّ بهاليومين».

عندما تقترب الحافلة من بوابة دمشق الجنوبية وتقف على الحاجز، يحيي الشاب الضابط المناوب، فيومئ لسائق الحافلة بالمرور دون تفتيش. يسأله السائق: «كأنهم مكثرين عدد الجنود على الحاجز؟».

أنظر إلى المتاريس الإسمنتية القبيحة، غرف مربعة الشكل كالزنازين من طابقين. قبل أسبوع فقط كانت هذه المتاريس مجرد أكياس من الرمل وخيمة مؤقتة ليتقياً بظلالها الجنود من حرّ الشمس، والآن قررُوا أن يستقروا!

يقول السائق: «الهيئة الشغلة مطولة؟».

يرد الصبي: «من يومين جاء المسلحون وقتلوا ثلاثة من الجنود. أبو إلياس.. بتعرفه؟.. أبو عضلات!».

في رحلتي وأنا أغادر دمشق منذ أسبوع كان يقف هناك رجل بعضلات بارزة يشرب «المتة» يلبس «تي شيرت» وفوقها سترة عسكرية بلا أكمام، واضح أنها ضد الرصاص، وفي يده بارودة روسية والكثير من الرصاص. كان هناك شيء ما في وجه هذا الرجل جعلني أتمنى أن يطلق أحدهم النار عليه. طريقة جلوسه في الخيمة بينما تكتوي رؤوس المجندين الآخرين بالشمس الحارقة، وطريقة تفتيشه الحافلة الصغيرة التي كنت أستقلها، والتي بالمصادفة كانت تحمل أسرة حمصية فقيرة نازحة، وتعامله الفظّ مع الرجل الحمصي، كل ذلك جعلني يومذاك أتمنى موته برصاصة.

والآن هل يمكنني القول بأنني سعيدة لأن أمنيتي تحققت؟.. لا، لست سعيدة أبداً!

يقترّب الصبي معاون السائق فأقول له: «أريد ماءً من جديد»، فيمتعض قليلاً، ثم يصبّ لي القليل من الماء في الكأس البلاستيكي الشفاف. أشربها وأنظر في عينيه مباشرة. لو أنني أستطيع أن أبعث له بطاقة إيجابية أو ببعض السحر مثلاً لأحوّله من شبّيح إلى شاب طيب وودود. يأخذ مني الكأس ويرميه من النافذة إلى الطريق بحركة عصبية، ويجلس مجدداً في كرسيّه إلى جانب السائق. ثم يرنّ هاتقه الخليوي،

ويصعد صوت الرئيس بكلماته المترافقة بموسيقا الحرب: «العين بالعين.. والسن بالسن».

* * *

19 تموز 2012

مرحباً..

التلفزيون السوري يصوّر الطرقات في بوابة الصالحية. تتقف المذيعات بعد أن تسوّي المساحيق على وجهها، وتبدأ الحديث عن دمشق الهادئة وأسواقها وسكانها الذين يملؤون الشوارع.

على بعد ثلاثمئة متر تقريباً من هذا المكان، كان هناك شباب يموتون برصاص بعضهم البعض، في لعبة أطلق عليها جزء منهم: «الأسد أولاً أحد»، وأطلق عليها الجزء الآخر: «الموت ولا المذلة».

هذه ليست دمشق التي تركتها منذ أسبوع، هي ثكنة عسكرية. يكاد لا يخلو شارع من الحواجز والعسكر. معظم طرقها مغلقة. كثيرون تركوا أحياءهم وانتقلوا إلى أحياء أكثر أمناً.

الجيش الحر الآن يخوض معارك في قلب دمشق، والنظام مرتبك يتخبط كرجل أصيب فجأة بالعماء، وتراه يضرب كل شيء يأتي في طريقه.

ابن أخت صديقتي مجند في الجيش النظامي عمره تسعة عشر عاماً. سُحبت كتيبته من حلب إلى دمشق الأسبوع الماضي. في اليوم الثاني لوصوله اضطر للمشاركة في مناوشات في ساحة السبع بحرات، وأصيب برصاصة في كتفه. اتصل أحدهم بصديقتي التي جازفت بمخاطر الطريق لترى ابن أختها الذي ليس له أقرباء غيرها في دمشق. حدثتني إنها عندما دخلت إلى مستشفى المجتهد كاد يغمر عليها. كان الدم

يملاً الممرات، والجنود مكّومون على الأرض. مضت تبحث بين الجرحى عن ابن أختها، وعندما سألت إحدى الممرضات أجابتها: «روحي دوري عليه.. شو ما عنّا شغلة غيرك؟».

تقول: «سمعت أنهم في هذا المشفى كانوا يتعاملون مع جرحى التظاهرات بمنتهى القسوة، لكن أن يتعاملوا مع جرحى الجيش النظامي بتلك الطريقة فهذا شيء لا يحتمل!»

أخذت الجندي المصاب إلى عيادة خاصة، ودفعت تكاليف باهظة لعلاجها، ثم اتصلت بذوي بعض الجنود الجرحى لإبلاغهم رسالة أبنائهم: «نرجوكم أخرجونا من هذه المشرحة!»

* * *

20 تموز 2012

مرحباً..

قبل نحو سنة وبضعة أشهر، حين زرت متجر عماد في الصالحية، سألته عن العربات والبسطات التي كانت تملأ الطريق أمام المحلات، وعما إن كانت تؤثر على مصالح التجّار، فأجاب بلهجة الشامية اللطيفة: «طبعاً، أثّرت على مصالحننا... أختي، هذا كله بسبب كم واحد مفكرين إنو فيهمون يواجهوا دولة.. لك عمي هاي دولة، ما حدا فيه يوّف بوشّا».

لم يكن عماد يومذاك يعرف بأنني كنت قبل يومين فقط مع هؤلاء الذين تسبّبوا في ازدحام البسطات أمام محلات تجار الصالحية على نحو مفاجئ.

كلما مررت من هنا أذكر ذلك اليوم الذي شاركت فيه في مظاهرة (اعتصام) لأول مرة في حياتي، كان ذلك في أواخر نيسان 2011 وكانت درعا محاصرة. تجمّعنا في ساحة عرنوس. جلس جلال على الأرض

فجلسنا قربه، وبدأنا بإنشاد الأغاني الوطنية التي يغنيها اليساريون عادة. تجمهر الناس حولنا لسماعنا، ظناً منهم أننا فرقة موسيقية كبيرة، لكن سرعان ما وقفنا وأخرجنا من جيوبنا لافتات قماشية كتب عليها جمل مثل: «لا لحصار المدن».. «لا لتجوع أطفال درعا»، وأشياء من هذا القبيل.

ثم مشينا على طول سوق الصالحية رافعين اللافتات ونحن نردد النشيد الوطني، لكننا لم نكمل خمسة دقائق في سيرنا حتى انهالوا علينا بالعصي. أذكر أنني وقعت أرضاً، فوقعت صديقتي فوقي، وأصابتها عصا أحدهم، لكن يد أحد تجار الصالحية شدتها إلى داخل المحل، وهي بالطبع سحبتي معها. عندما جاء رجال الأمن بحثاً عن المعتصمين قال لهم صاحب المحل مشيراً إلينا: «زبونات.. زبونات».. وهكذا أنقذنا من اعتقال مؤكد.

يومذاك، التاجر الشامي الآخر عند الناصية غمز لهم مشيراً إلى فتاة اختبأت في محله، فاعتقلوها مع بعض شبان آخرين بعد أن أوسعهم ضرباً. وقد شهدت عليهم كاميرات كانت مخبأة مع جمهور المشاهدين. منذ ذلك التاريخ حتى أمس القريب، انتشرت ظاهرة البسطات التي يبيع عليها الشبيحة بضاعة صينية رخيصة وتافهة، وربما تكون مسروقة. وهم يخبئون عصيهم تحت الألبسة المتركمة والجزادين والأحذية، متأهبين لضرب أي أحد يتجرأ على رفع صوته في قلب دمشق، حتى لو بترديد النشيد الوطني. منذ ذلك اليوم بدأ التجار يخسرون في تجارتهم، ويشتمون مرة المعارضة وطلاب الحرية، ومرة الدولة التي نشرت (زلمها أو شبيحتها) في الشوارع.

لكن، منذ أن انتقلت المعركة إلى قلب دمشق، اختلفت وظيفة هؤلاء. البارحة كانت الشوارع خالية منهم لكن عماد مع ذلك شكاً من عدم وجود زبائن.

قال: «لَمَّا بَتَكُون عَصَابَة حَاكَمْتَنَا هِيَك بَتَكُون النَتِيجَة...!».

نظرة عماد، واسع الثراء، إلى الأمور تغيّرت بعد سنة، وتحديدًا منذ أن أوقفوه على أحد الحواجز بتهمة أن سيارته، التي لم أعد أذكر نوعها، والتي اشتراها بمليونين ونصف مليون ليرة، مطلوبة للأمن العسكري!

قال: «تخيّلني أني يومذاك اضطررت لإهداء الضابط مسبحة ذهبية، تقدّر بنصف مليون ليرة، لتخليص سيارتي! هذه ليست دولة.. إنها عصابة».

* * *

27 تموز 2012

صباح الخير يا صديقتي..

دمشق تغيّرت كثيراً الأسابيع الماضية. من الصعب أن تقولي إن هناك منطقة بقيت آمنة في دمشق كلها. كل المناطق والأحياء والشوارع قد تكون مكاناً لقنص، أو لاشتباك مفاجئ، أو لاقتحام مفاجئ للأمن والشبيحة.. إنها المدينة الحزينة، مقطّعة الأوصال، مهجّرة السكان، العطشى في رمضان الحار جداً على غير العادة هذه السنة. سكانها الذين اشتهروا بأقوال مثل: «إذا إجاك الطوفان حط ابنك تحت رجلك»، أو «اللي بيتزوج أمني بيصير عمي»، أو «إذا شفت الأعمى دبّو مانك أرحم من ربّو». هم اليوم يتكلمون دون خوف عن الشبيحة الذين سرقوا بيوتهم أو بيوت أقاربهم، وعن الضباط الفاسدين الذين «بيتزونيهم على الفتوة والطلعة». ويتحدثون عن البيوت المنهوبة، والأهل المهجرين، والأقرباء القتلى في المعصية وداريا والقدم والميدان والهامة وقديسيا و.. والقائمة تطول.

لكن أكثر قصصهم تتحدث عن الحواجز الأمنية الكثيرة على

الطريق، وعن الإهانات واللغة العدائية للجنود.. لا بدّ أن أقول لك إن أي مشوار كان يمكن أن يأخذ منك نصف ساعة في ازدحام المدينة قبل شهور، أصبح يأخذ من وقتك ساعتين أو ثلاثة أو نصف النهار أيضاً.

حدّثني صديق إنه قبل أيام، وفي عزّ الظهيرة، وقف بسيارته على حاجز عند إحدى بوابات دمشق، ذكر لي أن الجندي الذي كان يوقف السيارات كان شاباً صغيراً لم يكمل العشرين من عمره، يحمل بندقية روسية بيد ويشير للسيارات بالوقوف باليد الأخرى: كان لا يسمح للسيارات بالمرور، وكان يصرخ براكي السيارات: «يا عراير.. يا جبناء.. والله لربيكم».

ثم يطلب هوية أحد سائقي السيارات، ينظر فيها ملياً ثم ينظر إليه، ويرفع صوته من جديد قائلاً: «.. والله لربيكن يا عراير، يا سلفيين»، ويكررها مراراً.

الرجال العائدون إلى بيوتهم في يوم رمضاني طويل وحار، كانوا يتصبّبون عرقاً، وكان هذا يزيد من حقنهم وحقدهم على الرجل الطائفي الذي يملك السلاح.

حدّثني بأنه كاد يخرج عن طوره، هو ومن معه، لكن بندقية الشاب المتأهبة، وبندقية القنّاص القريب المتكئ على الدشمة الإسمنيّة، جعلتا الأمر أشبه بالانتحار.

قال: «في النهاية، وبعد أكثر من نصف ساعة، رفعت امرأة عجوز صوتها: «الله يخليك يا ابني، والله أنا تعبانة كثير.. بحياة شبابك خرينا نمر..». حينئذ رفع صوته عالياً مشيراً للسيارة الأمامية بالمرور قائلاً: «.. طيب بس بشفاعتها رح خليك تمرّوا. بس والله لربيكن يا عراير يا كلاب.. بدكن تعملوا إمارة سلفية؟.. والله لأدعس روسكن واحد واحد».

هذه المشاهد تبدو كافية لجعل الكثيرين من الناس يخرجون عن

حياديتهم، فما بالك بكل المشاهد التي يمكن أن تروى عما يحصل اليوم
في دمشق وغيرها من المدن؟

* * *

28 تموز 2012

صديقتي العزيزة..

منذ فترة وأنا أفكر بالكتابة عن موضوع أصبح خبزنا اليومي، وهو
التطرف الديني والمذهبي. لا يمكنني أن أخبرك ماذا يجري حقيقة معي
دون التعرّيج على هذا الموضوع. وبما أن الحديث عن هذه الأشياء يحتاج
إلى الكثير من الجراءة، التي ربما لا أملكها، فسأحاول نقل المشاهد التي
تحدث حولي دون تدخل أو تحليل. لكن أتمنى أن تغفري لي إغفالي عمداً
لأسماء الأماكن، وكذلك تغيير أسماء الشخصيات.

أسكن كما تعرفين تماماً على حدود منطقتين متناحرتين. إحداهما
منطقة ثوار، يسيطر عليها رجال الجيش الحر، والأخرى منطقة موالاة،
يحرسها من كل الجهات الجيش النظامي وشبيحته وما يسمى باللجان
الشعبية. ترعبني حقيقة أن يحسبني كل طرف على الطرف الآخر، وأن
أكون يوماً ما ضحية الهوية الطائفية في لحظة انتقام. ولن أخبرك كم
أعاني منذ عام ونصف من وجودي هنا.

في الحارة التي هي على تخوم خندقين متقاتلين اليوم يقع بيتي،
وكل ما يحدث حولي اليوم ينتج من هذه التركيبة المكانية الغرائبية، أو
التناحر الطائفي الذي خلقه العنف.

كان هناك حتى وقت قريب تنوّع طائفي جميل في الحارة: عائلة
درزية، وعائلة شيعية، وعائلات سنيّة، غير أن هذا لم يمنع من أن
الصبغة العامة للحارة هي الصبغة العلوية. لكن، منذ بضعة شهور رحلت

جارتنا الشامية. جارتى السنية أصبحت تخاف من جيرانها. حملت متاعها وذهبت. ولم يمض النهار حتى وقف باص صغير بلوحة حكومية أمام البيت الذي كانت تسكنه، ونزلت منه عائلة بمتاعها الفقير جداً. يومذاك أرعبتني اللوحة الخضراء التي على الباص والاسم المكتوب عليها: «حفظ النظام»، وعبارة أخرى كُتبت بخط سيئ على مؤخرته: «رجال الأسد... حماة العرين».

العائلة السنية الأخرى في الحارة كانت عائلة أم عمرو. اشترت بيتها منذ عامين، ومعروف أن زوجها يضربها ويطلقها كثيراً ثم يعيدها. عندها ولدان شابان هما «كل مالها في الدنيا» كما تقول. البارحة عند وقت السحور جاءت دورية أمن فتشت البيت واعتقلت الأولاد.. نزل الجيران الذين معظمهم من رجال الأمن وعائلاتهم لمواساتهم.

تقول ريم جارتها عن الحادثة: «والله زعلت عليها كثير.. بس شو أكلت رعية! مبارح بنص الليل سمعت أصوات، فكرت أم عمر عم تتخاف مثل العادة هي وزوجها.. فتحت الباب ويا ويلي لاقيت مسلحين.. سألتهن: إنتو مين؟ قالوا لي نحنا أمن.. بصراحة لّما عرفت إنهن أمن ارتحت كثير.. سألوني إنتو من وين؟ قتلتهن نحنا من جبلة من ضيعة (..).. ولّما عرفوا أن زوجي بالحرس قالوا لي بصراحة نحنا مو جايين مشانكن نحنا جايين نفتش بيت جيرانك.. جايتنا إخبارية إنو عندهن سلاح..». وتكمل خبريتها مستمتعة بذكر التفاصيل.

لكنهم فتشوا ولم يجدوا شيئاً، ومع ذلك اعتقلوا الولدين! وتختم حكايتها: «بس أم عمرو شحاري بتوجع القلب.. فرطت من البكي وارتفع ضغطها».

تقول إحداهن: «بس حرام الزلّمة صار بده يبيع بيته». ترد أخرى دون أي تعاطف: «وقد يش بدو فيه؟».

نعم، سيبيع أبو عمرو بيته. وغداً سوف يخبرهم أحد ما أي معارضة

و(لدي بالتالي سلاح)، بعد ذلك سيقدر زوجي بيع البيت، وسوف تصبح الحارة جزيرة علوية تحدّها السواثر الرملية، ويحرسها شباب مسلّحون، ويملاً قلوب أهلها الخوف. وهكذا كلما ازداد خوفهم الغريزي تراجع مفهوم الوطن لديهم.. أي مستقبل ينتظر سورية؟!
نعم، أشعر بالخوف..

* * *

1 آب 2012

رنا نرحت من باب تدمر في حمص إلى برزة في دمشق، ثم استقر بها المطاف في جديدة عرطوز. جاءني اليوم صوتها الباكي على سماعة الهاتف. قالت: «طرقوا الباب الساعة السابعة صباحاً بعنف شديد، وما إن فتح زوجي الباب حتى دفعوه أرضاً ومشوا باتجاه الغرف موجهين فوهات بنادقهم الروسية إلينا. سألوا: أين الشباب؟، قال لهم زوجي: «ليس لدي شباب. هناك ابنتاي الصغيرتان فقط نائمتان في الغرفة». مضوا إلى الغرفة ودفعوا الباب بعنف. استيقظت الصغرى. هي لم تشف بعد مما رآته في حمص كما تعرفين. أشكر الله أن الكبرى نومها ثقيل. فتشوا كل زاوية في البيت، عبثوا بثيابنا وبأشياءنا الخاصة، وخلطوا مواد المونة بعضها ببعض، خلطوا مرطبات المربي مع مرطبات الزيتون. وفي النهاية طلب الضابط هوية زوجي، ثم سأله: «أنت من مصياف؟». وبعد أن استفسروا عن تفاصيل منبته وعرفوا عائلته وضيците، خرجوا من البيت معتردين من زوجي قائلين: لا تؤاخذنا يا غالي!

أغلق زوجي خلفهم الباب وهو يشتم الساعة التي خلقه فيها الله علوياً. بعد ذلك بدؤوا يقتحمون بيوت بنايتنا والأبنية المجاورة وهم يسألون: «وين الشباب؟».

هناك صبي في الثالثة عشرة أخذه معهم. رأيتهم من ثقب الباب وهم يسحبونه. كانت أمه تشده زاحفة على الأرض. فرضوا علينا إغلاق أبوابنا ونوافذنا.

«عيونكن بدنا نقلعها إذا بتطلّعوا من الشبايبك!».

كانوا يصرخون، وكان صوت بكاء الأطفال يخرج من البيوت وصوت أنين النساء.. وآه من ذل الرجال.

بقينا حتى الحادية عشرة صباحاً غير مسموح لنا بالحركة أو فتح النوافذ، أو حتى الكلام، ولا نعرف ماذا يجري في الخارج ولا ماذا يفعلون بالشباب. عند الخامسة مساء انسحبت الدبابات التي أحاطت بالحي قبل اقتحامه، ومع صوت انسحابها الثقيل خرج الناس من البيوت وتوجهوا إلى البساتين خلف الحارات ليعرفوا مصير أبنائهم... لو تعرفين ماذا حصل!

رأيتهم بأم عيني، كانوا يسحبون جثث أبنائهم من البساتين ويصفّونهم إلى جانب بعضهم البعض على الرصيف. كانوا مذبحون بالسكاكين! أخ لورأيتهم.. شباب مثل الورود في ريعان أعمارهم! وآخ.. ما أصعب الوصف! مررت إلى جانب الأمهات اللواتي كنّ يندبن. لو سمعت كيف كنّ يبكين، وماذا كنّ يقلن.. لو أن الله حقيقةً موجود وسمع دعاءهن لشلّت يد هذا الظالم فوراً.

«أنا تعبانة ومنهارة..»

تصمت ثم تضيف كأنها تذكرت شيئاً: «قطعوا الكهرباء منذ الصباح. نحن محاصرون لا نستطيع الخروج من البلدة ولا طعام لدينا.. نحتاج إلى الطعام ويجب أن توصلوه إلينا. ونحتاج أن تعرفوا أن أهل جديدة عرطوز دفنوا اليوم خمسين شاباً من أبنائهم، منهم سبعة وعشرون شاباً من آل البقاعي. دفنوهم في مقبرة جماعية وبكؤهم بصمت..

نحتاج إلى الصبر، ونحتاج أن ترسلوا لنا الطعام. هناك أطفال جائعون.. هناك...»، ثم تصمت.

كنت صامته على الجهة الأخرى من الهاتف. كلمة وحيدة فقط نطقتها حين سمعت بكاءها: «سلامتكن يا صديقتي... سلامتكن!».

* * *

15 آب 2012

مرحباً..

سُجِّلَت في الأشهر الأخيرة الكثير من الحوادث التي تصم الجيش الحر والثوار بالعار. وإن كان الخوض في هذا الموضوع خطيراً ويجدر البحث فيه بحذر شديد. فقد يخونك المعارضون، ويبيع بعض المتطرفين دمك. كما أنك ستكونين هدفاً سهلاً للنظام الذي كانت الحقيقة وما زالت ألد أعدائه.

سأكرر جملتي نفسها مرة أخرى: «أنا خائفة».

ثورتنا التي احتفت في بداياتها بكسر حاجز الخوف، نما على يومياتها خوف من نوع جديد، لا أعرف إن كان يحتاج إلى ثورة جديدة للتخلص منه.

هل الجيش الحرّ هو من يقوم بالممارسات الطائفية؟! أم أن المدنيين الذين انضموا إلى الجيش الحر هم من يقومون بذلك لأسباب شخصية جداً؟ هل الأسماء التي توحى بالعصبية الدينية لكتائب الجيش الحر أمر منفصل عن سلوكه على الأرض؟

وهل بالإمكان القول إن الجيش الحر وُجد لحماية المظاهرات، وهو الذي يحارب النظام ولديه من الأخلاق الكثير بحيث يدرك كل عناصره غايتهم النبيلة في حماية الثورة والشعب؟ أسئلة يقترب منها السوريون

المعارضون بحذر، رغم أن كل نقاشاتهم وأحاديثهم السرية هذه الأيام تكاد لا تخلو منها.

«السكين بإيد الخرى بيجرح»؛ مثل سوري شائع وهو يعني بالـ (خرى): الفاشل والتافه أو الحثالة. ومعناه أنه عندما يحمل رجل تافه وبلا عقل سكيناً، وهو أداة تستخدم في المطبخ أو على طاولة الطعام، فإن هذا السكين قد يؤذي الآخرين فما بالك بالأسلحة الحقيقية؟

تقول زهرة عن ابنها الذي فتح صدره لمدفع الدبابة عندما دخلت دمر: «لم أصدق عيني عندما أحضروا لي صورته... من أين أتى بكل هذه الشجاعة؟».

ابنها الفاشل كان أنانياً و«مغضوباً»، وفق وصفها، أصبح مؤمناً على نحو مفاجئ. أرخى لحيته وحلق شاربه مثل السلفيين، وبدأ يصلي ويفتي «ويحلل ويحرّم ويذكر الله على الطالعة والنازلة». تقول: «عندما علمت بأنه ورفاقه اقتحموا بيت «العوايني» وبدؤوا بسرقة أغراض بيته، ركضت إليهم وصحت بهم: «يا ابني إنتو ثوار أو حرامية؟ إنتو بترضوا يقولوا هاي ثورة حرامية؟.. مو عيب يا ابني؟ رجعوا الأغراض لبيت الجماعة.. شو ذنب مرته وولاده؟».

قالت بأنهم لم يعيدوا الأغراض، لكنه أكد لها بأنهم سوف يعطون الأغراض للفقراء.

تقول لي صديقتي اليوم: «اخرجي من بيتك.. بيتك على تخوم منطقة موائية، سوف يهاجمون حارتكم في لحظة ما، وهم سينتقمون من العلويين ولا أريد أن تتأذي أنت أو أولادك...».

زهرة أم الشاب الذي كان مدمناً على الحشيش وأصبح حديثاً عنصراً فعالاً في الجيش الحر، تركت بيتها بعد أن أخذت زوجة الابن معها والأولاد وتشردت بين بيوت الأقارب.

«خفت إن جاؤوا لتفتيش المنزل أن يعتقلوا كنتي.. فكنة أم ماهر عادت زرقاء بعد أن أخذوها لتتعرف على زوجها في المعتقل. وما يعرف هني الجماعة ما حكوا شي، بس الناس بيقلوا إنهن اغتصبوها إدامه». تهمس لي.

وهكذا بين صديقتي التي تركت بيتها ونزحت خوفاً من الاعتقال والاعتصاب، وبين نزوحي الوشيك خوفاً من هجوم ابنها ورفاقه الانتقامي على الحي، سنبقى نحن السوريين ملح الأرض وزادها، نتقاسم أمتاراً في الأرض تحوي جثتنا جميعاً..

* * *

19 آب 2012

حكاية من التل:

نتطلق بسيارتنا على طريق أتوستراد درعا قادمين من صحنايا إلى دمشق. من خلف جبل قاسيون يظهر دخان كثيف، إنه دخان يتصاعد من مدينة التل التي تُقصف منذ أيام. ما الذي فعلته هذه المدينة لتستحق كل هذه الكراهية من جيش النظام وأسلحته الثقيلة؟

منذ شهرين التقيت مصادفة بشاب من البلدة، أخبرنا بأن «النظام سحب عناصره وكل رجال الأمن والشرطة منذ أشهر من المدينة، بعد أن سهّل دخول الأسلحة للبلدة».

قال: «كنت ذاهباً، قبل شهر، إلى عملي في دمشق حين قرر صبي في السادسة عشرة أن يمنع الناس من الخروج إلى وظائفهم. قطع الصبي الطريق المؤدية إلى دمشق بحاويات القمامة وبعض الإطارات، وصار يطلب من السائقين أن يعودوا. ثم بعد أن حجزهم ساعات غير رأيه، فرحل وترك للسائقين مهمة إزاحة الحاويات.

كان كل ما يلزم الصبي لكي يفعل ذلك هو أن يكون معروفاً في المنطقة بأنه من الثوار، ولديه سلاح جيد استخدامه.

أعرف هذا الصبي، وأتعاطف معه، فهو من الشباب الذين جرى اغتصابهم مراراً في فرع الأمن الجوي في بداية الأحداث. وكان رغم صغر سنه من أوائل الذين خرجوا في مظاهرات التل السلمية.

لكن المرعب في الأمر أنه كان بإمكان هذا الصبي، وبقية أفراد الجيش الحر، أن يصدروا الأحكام بحق الذين تثبت عليهم تهمة العمالة للنظام، وقد يصل الحكم إلى الذبح والسحل في الشارع.

يقول صديقنا اليساري إن الشرخ اتسع مؤخراً بينه وبين أخيه المتدين.

«كنت دائماً أذكّره وأصدقائه بأن هذه الممارسات تسيء للثورة، وتصب في مصلحة النظام. لكنه في كل مرة كان يهددني قائلاً: إن استمررت في قول هذه التفاهات فسأرفع حمايتي عنك. إن النظام يدبر شيئاً للتل، وهؤلاء المجانين بسلوكهم يعطونه مبرراً...».

تلك كانت قصة المهندس التلي، التي قد لا تكون (دقيقة) قبل شهرين. لكن الحقيقة المهمة أن طائرات النظام وصواريخه الحربية تقصف الآن مدينة التل يومياً بلا رحمة، على مسمع كل سكان العاصمة وريفها، وأن سكان تل منين أمهلوا نصف ساعة فقط للخروج منها، وأنهم تركوا بيوتاً قد لا يعودون إليها قريباً.

والحقيقة أن الصبي المزاجي الذي قطع الطريق صباحاً أمام الموظفين قُتل برشقات مدفعية الطائرات الحربية، وأنه ربما كان يحاول قطع الطريق المؤدية إلى التل بحاويات القمامة كي لا تمرّ الدبابات.

* * *

1 أيلول 2012

الساعة الثالثة صباحاً..

منذ أيام وأنا أحاول كتابة شيء لك، لكنني كنت في كل مرة كمن يحضر في صخر قاسٍ. تتكسر الكلمات والمعاني على صخرة إحساسي العميق بلا جدوى كل ما سأكتبه.

أي القصص سأكتب لك؟ وكيف؟

مئات الشباب السوريين قضوا في محاولتهم لنقل الصورة أو الخبر عبر المحطات الفضائية، واهمين ربما أنه حالما سيعرف العالم حقيقة ما يجري فإنه سيتحرك لإنقاذنا من هذا الظالم. وها هو ذا العالم يتحفنا كل يوم بمؤتمرات ومبادرات جديدة وجلسات في مجلس الأمن، ويبدو أن الجميع متفقون على إطالة أمد معاناتنا.

والآن ما جدوى أن أخبرك أنني فرحت اليوم صباحاً عندما علمت أن ياسر، ابن أم ياسر الحرستاوية، خرج من المعتقل، وكانت تظنه مقتولاً، أو أن أخبرك بأنني بكيت ظهراً لدى سماعي أن عائلة أبو عبد الله جميعها قتلت حين سقطت قذيفة دبابة ملتهبة على السرفيس الذي كان يحاول الفرار بهم من المعارك الضارية في حي التضامن! أم أخبرك أن أخبار العديد من أصدقائي في ريف دمشق قطعت منذ أسابيع، ولا أعرف ما إن كانوا أحياء أم أموات؟

مهما يكن، وأنا في سياق حديثي معك الآن يبدو بأنني حسمت أمري، وسأستمر في كتابة رسائلتي السخيفة هذه، لأنني في النهاية أعرف أن بشراً طيبين مثلك يهتمهم ما أقول.

باختصار ستستمر المحاولة:

«أيها العالم.. ألو.. ألو.. معكم سورية! ألو ألو ألو...».

* * *

2 أيلول 2012

مرحباً..

اليوم التقيت صديقتنا هند، هند المرحلة التي تحب الرقص.. هل تذكرينها؟ تغيّرت كثيراً، أصبحت كئيبة وصامتة غالباً. ما إن تسألينها «كيف الحال؟» حتى تهتمر دموعها، ويختنق صوتها مع جملة: «ماشي الحال!».

حدّثتني إنه ما إن سمحت السلطة للناس بدخول التل، بعد «تطهيرها من العصابات الإرهابية»، وفق رواية النظام، حتى ذهبت بصحبة أخيها للاطمئنان على بيت العائلة في تل منين.

قالت إن الجثث كانت في الشوارع والدم كان يملأ الطرقات. «لذلك قام أهل (الخير) من السكان، الذين سمح لهم الجيش بالعودة للاطمئنان على بيوتهم، بجمع الجثث ودفنها في قبر جماعي في إحدى الحدائق العامة. كانوا أكثر من خمسين جثة لرجال يبدون في مقتبل العمر».

منذ أيام فوجئ أهل التل برجال السلطة ينبشون أرض الحديقة. أحضروا شاحنة كبيرة وضعوا فيها الجثث المسكينة وأخذوها معهم. تقول: «هناك شهود عيان أحياء على هذه الحكاية».

ما إن أنهت هند حكايتها حتى بدأنا نحلل ظاهرة نبش رجال النظام للقبور وخطفهم الجثث. سمعنا قصصاً كثيرة مشابهة، حتى يبدو أن أقسى المهمات على الذين يموت أولادهم هي الاحتفاظ بجثثهم. ترى ماذا يريدون من الجثث؟ لماذا على السوري أن يموت أكثر من مرة؟ هل هو نوع من الانتقام المضاعف؟ أم هو تصرف طبيعي للقاتل، ينبع من رغبته في أن تختفي الجثة فتختفي ذاكرتها عنه؟ أين يذهبون بالجثث؟

قصص كثيرة يرويها الناس، لا أعرف صدقها من كذبها. يتحدثون عن ماكينات في الساحل تقوم بفرم الجثث ورميها للأسماك في البحر، أو

حرقها بعيداً في مكبات القمامة. ربما لا يريدون للجنة قبراً عليه شهادة تحمل الاسم والتاريخ. شهادات القبور تبقى شهادة على جريمتهم حتى يغرب الزمان. وهؤلاء في النهاية في نظر النظام إرهابيون يستحقون الحرق، وفي نظر العالم مجرد أرقام.

* * *

10 أيلول 2012

مرحباً..

قبل أسبوعين، أُطلق الرصاص على الباص الذي كان يقلّ هيام إلى عملها في أحد المعامل في المنطقة الصناعية في حمص، بينما كان يمر عبر «شارع الستين». على الأرجح أن الرصاص خرج من سلاح عنصر في الجيش الحر، لأن الجهة التي أُطلق الرصاص منها كانت تحت سيطرة الثوار في ذلك التاريخ. كانت هيام مع اثنتي عشرة عاملة إضافة إلى عامل من زملائها. أصيب العامل برصاصة قاتلة وتوفي على الفور، وأصيبت هيام برصاصة دخلت خاصرتها وخرجت من الجهة الأخرى، فنقلت على إثرها إلى المشفى الوطني بحمص.

«كان يمكن إنقاذها.. كان يمكن أن تعيش لولا إهمال الأطباء في المشفى الوطني في حمص» يروي صديقي حكاية أخته، «بقيت ساعتين ونصف أمام غرفة العمليات بانتظار دورها، فهناك أولويات في هذا المستشفى».

يكمل شارحاً: «الأولوية للضباط، ثم المجندين، ثم المدنيين من الشبيحة، وبعدهم يأتي دور المدنيين الموالين طبعاً، وأما المعارضون فهذا المستشفى بالنسبة لهم مجرد فرع من فروع المخابرات.. كانت قبل العملية في كامل وعيها، لكن خضابها تناقص على نحو فجائي بعد أن خرجت من غرفة العمليات. أكاد أجزم بأن خطأ ما حدث في

غرفة العمليات، لأن حالتها بدأت تتدهور بسرعة شديدة. غابت عن الوعي تماماً. قيل لنا في ما بعد إن تصالباً في الدم حصل معها، ثم قالوا انحلال بالدم... عندما أيقنت أن هناك إهمالاً في علاجها قررت نقلها إلى أحد مشافي دمشق. طلبت سيارة إسعاف لنقلها، لكن إدارة المستشفى أبلغتني بأنه لا يمكن تلبية طلبي نتيجة النقص الحاد في سيارات الإسعاف.

مضيت باتجاه مستشفى خاص يبعد نحو كيلومترين اثنين فقط عن المستشفى الحكومي، وأصحابه معروفون بدعمهم للمعارضة. كنت أعرف معظم الأطباء هناك بالمصادفة. طلبت من إدارة المستشفى الخاص استئجار سيارة إسعاف. وافقوا شريطة أن أحضر هيام إلى مشفاهم بسيارة المستشفى الحكومي، وهم سيتولون نقلها بسيارتهم إلى دمشق، وذلك لأنهم لا يستطيعون الاقتراب من منطقة المستشفى الحكومي خوفاً على السائق من الاعتقال.

عدت مشياً على قدمي إلى المشفى الحكومي، وطلبت من الإدارة استخدام سيارتهم لنقل هيام مسافة الكيلومترين حتى تصل إلى المشفى الخاص (المعارض)، لكنهم لم يوافقوا لأسباب مشابهة لأسباب المشفى الخاص. بقيت نهاراً كاملاً أقطع مسافة الكيلومترين جيئةً وذهاباً مشياً على قدمي، مسرعاً أسبق الوقت والموت الذي كان يتسلل في دم أختي بسرعة تفوق سرعة قدمي.

تذكرت في ما بعد أن هناك طبيباً له كلمة نافذة لدى إدارة المشفى يمكنني أن أحاول إقناعه بمساعدتي. عرفت هذا الطبيب خلال الأيام الماضية التي قضيتها في المستشفى إلى جانب أختي. نذر هذا الطبيب الضابط نفسه لخدمة الجرحى العسكريين، ولدعم الجيش والرئيس في (الحرب على العصابات الإرهابية الممولة من إسرائيل وعملائها القادة العرب)، سمعته يردد ذلك مراراً أمام أهالي الجنود الجرحى، وبدأ لي

بأنه يؤمن جداً بذلك، وبأنه في نهاية الأمر رجل نزيه، نذر نفسه لقضية وطنية (وفق رؤيته الخاصة للأمور).

مضيت إليه ونكشت فيه إنسانيته، فتوسط لي مع إدارة المستشفى للحصول على سيارة إسعاف مجهزة بجهاز أوكسجين لنقل أختي إلى دمشق. بعد ساعة من لقائي معه كنا داخل سيارة الإسعاف أنا وهيام، الغائبة عن الوعي، وشاب نحيف ومتوسط الطول من المفترض أنه الممرض. لكن ما إن تحركت السيارة في الطريق خارجة المشفى حتى طلبت منه أن يشغل جهاز الأوكسجين. فأجابني: «لا أعرف...».

«كيف لا تعرف؟»، صرخت به.

«أنا جندي!»، أجابني.

حينئذ أمرت سائق سيارة الإسعاف بالتوقف والعودة إلى المستشفى. مضيت إلى الطبيب الضابط للحصول على ممرض حقيقي، لكن ... كان الوقت قد فات.

بعد أقل من ساعة ماتت هيام..

وبعد تجريعي مرارة فقدتها، وبعد معاناة لمدة ثلاثة أيام في إكمال الأوراق المطلوبة لاستلام الجثة، نزلت إلى القبو لاستلام جثتها من البراد. كانت الرائحة قاتلة هناك. صحيح كانت هناك جثث محترمة في البرادات، لكن بالمقابل كانت هناك جثث كثيرة مكدّسة بعضها فوق بعض في الممر. كانوا يسحبونها بلا أدنى احترام إلى شاحنة كبيرة في نهاية الممر..

يكمل صديقي حكاية هيام، أو حكاية جثتها، التي نُقلت إلى ضيعتها الموالية لتواري الثرى: «كدت أجنّ عندما رأيت صور بشار الأسد تملأ جدران خيمة العزاء. صرخت بصوت عالٍ: «لماذا تضعون صور القاتل هنا؟.. هو من قتلها هو من...». لكن أبي وإخوتي كمّموا فمي بأيديهم حتى

لا أكمل جمعتي، وسحبوني إلى خارج الخيمة، ثم أمّنوا لي خروجاً سريعاً من الضيعة ليلاً، بعد أن همسوا في أذني بأنهم لا يستطيعون حمايتي من شبيحة الضيعة. أخرجوني في تلك الليلة بمنتهى السرية من عزاء أختي خوفاً على حياتي. تركت هيام ورائي هناك، وأعتقد أنني خنتها، ما كان عليّ أن أدعهم يدفنونها هناك.. هي كانت تحب حمص.

في حمص الكثير من القبور، والكثير من الموتى ولن يضرها قبر جديد. لكن أهلي دفنوها إلى جانب اثنين وخمسين قبراً لشباب ماتوا في السنة والنصف الماضية. اثنان وخمسون شاباً ماتوا من ضيعتنا الصغيرة دفاعاً عن بشار الأسد، وهيام دفنت إلى جانبهم.. وهذا ما يؤرّقني اليوم! يؤرّقني موقف أهلي الذين يعتبرون بأنها قتلت لأنها علوية.. وددت أن أقول لهم في خيمة العزاء: إن كان الجيش الحر هو من أطلق النار عليها فإن المستشفى الحكومي هو من قتلها بإهماله. كما قتلها مدير المعمل الجشع الذي أمرَ باصات المصنع أن تمر من الطريق القصير الخطر لتوفير ثمن الوقود، وكان يمكن لسائق الباص أن يتجنّب هذه الطريق وأن يمضي بهم في طريق آخر أكثر أماناً. قتلتها مسافة الكيلومترين بين المستشفى الحكومي والمستشفى المعارض، وقتلها الجندي بهيئة ممرض، قتلها من تسبّب بكل هذا.. قتلها الرجل الذي علّقت صورته في خيمة عزائها.. هذا ما يؤرّقني».

* * *

20 أيلول 2012

مساء الخير..

عدنا إلى المدرسة..

لو أن أحداً قال لي في نهاية العام الدراسي الماضي بأننا سنعود إلى

المدرسة في ظل ظروف العام الدراسي السابق نفسها لما صدّفته. لكن يبدو أن «الشغلة مطوّلة» كما نقول.

«من أين جاءت الطائفية؟»، تقول إحدى المعلّّّات.

«ما في طائفية.. طول عمرنا عايشين مع بعضنا إخوة وأهل»، تتدخل معلّّمة جديدة.

«طول عمره فيه طائفية بس هلق جاء الوقت المناسب لتظهر!»، يتدخل معلّم الرياضيات.

بالمناسبة هناك قرار واضح من وزارة التربية بعدم التحدث في السياسة، ويترك لإدارة المدرسة دعوة الأجهزة المختصة (أجهزة الأمن) في حال احتاج الأمر. لكن هيهات! لا ينتهي أي حديث حتى لو كان حول التعليم إلا بالحديث عن أوضاع البلد وهو لا يعتبر حديثاً في السياسة.. بل حديثاً حول حياتنا!

لكن قصص الآخرين تُروى، وتصبح في نهاياتها حديثاً في السياسة. فتجارب الآخرين أو ما اختبروه خلال الشهور الماضية جعلت الكثير منهم يغيّر موقفه على نحو دراماتيكي.

عادل.. سائق أحد باصات المدرسة. نزح من الجولان مع عائلته وكان عمره عاماً واحداً، ولا يعرف ما الذي جاء بأبيه إلى «المليحة» في ذلك الوقت.

عندما كنت أتحدث معه في نهاية العام الدراسي الماضي كنت أشعر بحماسة للثورة، وكرهه للنظام وللظلم. لكن يبدو أن موقفه تغيّر على نحو دراماتيكي خلال عطلة الصيف.

«أنت لا تعرفين من هؤلاء! أنا أعرفهم جيداً.. هم شوية زعران وفاشلين، وهناك بينهم حرامية وحشّاشين».

«لم تكن تقول ذلك، ما الذي تغيّر؟».

«يا آنسة، أنت ما بتعرفي شو صار.. الله وكيلك كانوا رح يخلعوا الباب وأنا داخل البيت.. قلت لهم: لوين رايعين؟ شو بدكن؟.. قال بدهن يفتشوا البيت. وفاتوا على البيت، وصاروا يبهدلونني، وبعدين قالوا لي أنت من وين؟ أنت غريب عن «المليحة» من وين أنت بالأصل؟ قلت لهم أنا من «الجولان». فردّوا: وليش جيت تسكن هون؟ قلت لهم إن أبي هو من جاء بنا، وأنا أحببت «المليحة» وناسها لأنهم طيبين.. بس ما عجبهن! صاروا يتهموني بأني عوايني، ويهددونني بالذبح. قلت لهم عندي زوجة وأولاد وأم مريضة وما لي علاقة بشي... هذول يا آنسة بدهن يجيبوا لنا الحرية؟ هذول بي فهموا بالديمقراطية؟.. إذا كان هيك أنا بطّلت بدي تغيير. هذول زعران.. صار معهن سلاح وصاروا يحلّوا ويربطوا ويتردوا ويهددوا أي حدا ما بيعجبهن بحجة أنه عوايني. بعدها بساعات اقتحم المنطقة الجيش النظامي ودخل ليفتش البيوت. تصرفوا على عكسهم تماماً! واللّه العظيم يا آنسة كان الجنود مهذّبين ومؤدّبين، وتعاملوا بمنتهى الأخلاق.. الواحد يحكي الحق. قلت لهم: «اللّه يحميكن ويخلي لنا الجيش»، هيك طلعت معي من قهري من الجيش الحر..».

«بس الجيش النظامي عادة ما بيتصرف هيك وكلنا منعرف!»، علّقت.
«يمكن حدا قال لهم إن الجيش الحر تصرّف على نحو سيئ فعملوا هيك، ليببّضوا صفحتهم على حسابه»، أجاب.

هذا كان حديث عادل، وهذه تجربته. أنقلها هنا لعلّك تساعدني في رؤية الصورة التي بدأت تصبح مشوّشة بالنسبة لنا أحياناً، ولكم غالباً.

* * *

21 أيلول 2012

مرحباً..

«لم يعد الأمر مقبولاً». «بل أصبح الأمر مقرفاً». «استقنعنا.. غرقنا

في المستنقع». «خلص تعبنا». «خلص، ما عاد فينا نتحمل».. الجميع يردد هذه الجمل!

اليوم صباحاً كان هناك حوار بين بعض المعلّّات له دلالات مهمة، كما أعتقد. كانت إحدى المعلّّات تحدّثنا عن ليلتها المرعبة التي قضتها البارحة في المنطقة التي تسكن فيها.

قالت إن الطائرات حلّقت على علوّ منخفض، ثم بدأت ترمي حممها على بساتين «القابون». كان زوجها والأولاد خارج المنزل، وحاولت الاتصال بهم لكن فجأة انقطعت الاتصالات وانقطعت الكهرباء، ولم يصلوا إلى البيت حتى كاد قلبها يتوقف من الخوف. قالت إنه قيل لهم بأن محطة توليد الكهرباء الرئيسية أصيبت بقذيفة!

«قد تكون إحدى الطائرات أصابتها»، علّقت إحداها.

«هني بيكونوا المسلحين ضربوها فردّ عليهم الطيران»، ردّت سها.

«طيب يعني كيف بيردّوا على أفراد مسلحين بطيران؟».

«الدولة ما عاد تقدر تسوّي شي غير هيك.. عم يجينا لبيبين وأفغان وغيره يجاهدوا عنا. أميركا هيك عملت بأفغانستان لخلصت من طالبان والقاعدة»، أجابت سها.

«هذيك أفغانستان والطيارات كانت أميركية...».

«طيب بلكي الطيار ما عاد شاف بالعمّة وميّر بين معارض وموالي...»، نضحك.

«بيكون معه ليزر يا فهمانة.. بس يمكن يكونوا عاطينه الإحداثيات غلط!»، ويضحك الجميع.

لكن سها تصرّ على أن المسلحين الذي تسميهم (الجيش الكرّ)، هم من يعتدون على محطات الكهرباء وعلى كل شيء.

«خلص يحلّوها.. لك يحلّها ويخلصنا»، تتدخل الآنسة أمينة، «لك

يحلّ. حلّ يا خوي حلّ...»، تلحّن الجملة وتميل بخصرها، «.. حلّ يا خوي حلّ...»، نضحك جميعاً.

لكن سها تمتمت شيئاً اضطررنا لقطع ضحكنا لسماعه، خاصة أن صوته كان على غير العادة متشنجاً ومنخفضاً:

«بعتقد إنه إذا تنحّى رح تخرب أكثر.. وكمان إذا تنحّى وراح على الساحل، بظن أهل الساحل ما رح يستقبلوه، لأنه مات كثير من أولادهم، أكثر من 7000 شاب ماتوا.. ومنشان شو ماتوا؟ منشان يتنحّى بالأخير؟ لا ما رح يتنحّى..»، علا صوتها فجأة كأنها تذكّرت بأننا معها في الغرفة: «رح يضل، واللي مو عاجبه يضرب رأسه بالحيط».

رمتها في وجوهنا ومضت، وتركتنا مصدومين بكل ما قالت، فهي لأول مرة تنطق بكلمة (تنحّي). لكن يبدو أن ذلك نشر جواً من السعادة في الهواء، فضحكنا وتابعنا نكاتنا: «أنا هذا الحيط عاجبني»، «وأنا هذا عاجبني...».

وهكذا انتهى حوارنا الصباحي المرح.

* * *

29 أيلول 2012

مرحباً..

تسقط طائرات الميغ براميل متفجرة على أبنية طابقية في حلب وتجعلها ركاماً، فيبرّر الموالون ذلك بأن أهل حلب يطالبون بتنظيف مدينتهم من الجهاديين المرتزقة القادمين من أفغانستان وليبيا.. وربما من المريخ. تطلق الدبابات المضادة للطيران مدفعيتها على بيوت في قدسيا وجديدة عرطوز، فتطلق امرأة في حي الورود أو في مساكن الديماس زغرودة، ويهمل رجال مديون في المزة 86: «اللّه لا يقيمهن!».

تزيج الجرافات بيوتاً في حي التضامن والقابون وبرزة البلد، فيبرّر رجال الدولة ذلك بأن الوقت قد حان لتسوية الأبنية المخالفة، ويقول غنيّ دمشقي: «منيح، بلكي بتستعيد دمشق جمالها القديم»، وينسون الحارات العشوائية التي تحيط بدمشق، مثل مزّة 86 وعش الورور وحي الورود وجبل الورد وغيرهم، التي تعتبر مخزن التشبيح الرئيس في دمشق.

يبدو أن القضية السورية ستصبح بعد اليوم أزمة أخلاقية مستدامة، تثبت بثوراً طائفية على وجه «الهوية السورية» التي نسيانها في ظل دولة «سورية الأسد».

ما كنت لأقول هذا لو لم تدفعني زميلتنا «هيام»، العائدة من إحدى قرى طرطوس، إلى قول ذلك، ففي النهاية كلنا يعرف أن الفقر والعوز والبطالة هي التي جاءت بالريفيين إلى دمشق، ولولا المناطق العشوائية الفقيرة لكان السكن في دمشق وريفها بقي حلاً حتى بالنسبة لي وأنا من ذوي الدخل المتوسط.

أعود إلى قصتي عن «هيام» معلّمة التاريخ في المدرسة.

ما المفردة التي تعبّر عن «الكراهية في أشد درجاتها»؟ لا تسعفني اللغة العربية. هي أبعد من الحقد حتى. إنها تماماً ما لم تستطع «هيام» أن تخفيه، ونحن نعرّضها بوفاة أخيها الضابط في عملية للجيش الحر في ريف دمشق.

جلسنا معها في الاستراحة لمواساتها في مصابها.

بدأت بالحديث عن الشهيد البطل، ذاك الذي قتل أربعة من عناصر الجيش الحر قبل أن تودي قذيفة بحياته. حدّثتنا عن أخلاقه وكرمه، ونحن ننصت إلى حزنها تقديراً لمشاعرها أكثر مما يعنيننا الشخص لذاته. في نهاية حديثها حاولت زميلة مواساتها للتخفيف عنها: «شو منقول نحن؟.. يا أختي عائلتي كلها تشردت، بيوتنا تهدمت.. أرزاقنا نهبت».

لم تكمل حديثها حتى قاطعتها «هيام»: «خلص لو سمحتِ ما بدي إسمع.. نحنا الحقد علينا حقد طائفي، وهذا شيء واضح».

«له يا أختي.. شو طائفية ما طائفية؟.. ما في طائفية ولا شيء، اللي عم يموت وين ما كان سوري..».

«كلهن ولادنا»، تتدخل معلّمة أخرى.

«خلص لو سمحتِ ما بدي إسمع... ما بدي إسمع»، تنهرها «هيام» على نحو غير متوقع، وينتهي الحوار.

في اليوم التالي لا تحضر «هيام» ولن تحضر بعد ذلك إلى المدرسة أبداً. قالت لنا إحدى صديقاتها إنها «كرهت الشام».

سوف تنتقل هيام إلى طرطوس، حيث كل الناس مثلها يظنون أن الأمر مؤامرة كونية على وجودهم كطائفة.

في اليوم التالي تقول لي معلّمة كبيرة في السن: «شو قصتها الآنسة هيام؟ تغيّرت كثير. لمّا كنت عم عزّيها حسيت بعيونها كأنه عم تقول لي: إنت قتليته!».

يا لحدس هذه السيدة الدمشقية الجميلة.. نعم، هيام كانت في سلوكها ذلك اليوم تقول لنا: «أنتنّ من قتلنه». وحتى للمواليات منهنّ. إنها تضعهن عن غير قصد في خندق طائفي معادٍ، وهنّ، وبإعجابي، لم يتحوّلن إليه بعد. لكن من يدري؟

* * *

19 تشرين الأول 2012

مرحباً بعد غياب..

بعد نزوحي من بيتي لمدة أسبوعين، عدت أمس إلى قدسيا.

أعتذر لتجاهلي رسائلِك التي تلحّ بالسؤال عن أحوالي، فقد كنت عاجزة طوال تلك الفترة عن لملمة أفكارِي المبعثرة مع أشياءي وأغراض أولادي: كتبهم، ثيابهم، ألعابهم، خوفهم...

يقال: الموت تحت قصف الطائرات هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لك في سورية. وفي مكان آخر يقال: الموت أهون من الاعتقال، ويقال أيضاً: الاعتقال أهون من الاختطاف.. وهكذا، بالنسبة لي ربما يكون النزوح أهون الشرور التي يمكن أن تحصل هذه الأيام.

«إلى أين نهرب كي ننجو وأولادنا؟». هذا السؤال شغلنا ويشغلنا كل لحظة، فقد أصبحت كل الأماكن غير آمنة.

الأسبوع الذي تلا يوم جمعة المجزرة في قدسيا كان مزدحماً بالشائعات. قيل بأن شباب الجيش الحر أسروا خلال تلك المعركة أحد رجال اللجان الشعبية الذين هاجموهم، فقام أولئك بمساعدة الجيش والجهات الأمنية بخطف ثلاثة شبان من عائلات معروفة في قدسيا ومن الضاحية القريبة. الشبان الثلاثة الذين تركوا قدسيا منذ أشهر لم يكونوا ليعرفوا أن اسم العائلة على بطاقة الهوية سيكون السبب في اختطافهم من قبل الشبيحة. عندما جرت صفقة تبادل المختطفين، سلّمهم شباب قدسيا رجلاً مقتولاً قيل بأنه توفي متأثراً بجراح المعركة، فثارت ثائرة اللجان الشعبية وأعدموا الشبان الثلاثة فوراً. بعد ذلك سرت إشاعات قوية عن مصالحة وطنية بقيادة وزير المصالحة الوطنية علي حيدر، وقيل كذلك بأنه أتى يوم الثلاثاء بنفسه إلى قدسيا.

لكن صبيحة يوم الأربعاء حصل أمر غير متوقع بالنسبة للكثيرين، فقد كنا ماضين إلى مدارسنا وأعمالنا عندما همس لنا أحد الجيران: «سوف يقتحمون قدسيا.. سوف يقتحمون قدسيا!»

تناقل الناس الخبر همساً، وبدأ الخوف يتسلل إلى النساء والصغار.

كل الطرق للخروج من المنطقة كانت مقفلة بعناصر الجيش. كانوا يقتحمون المدينة بحجّة القضاء على (الإرهابيين)، لكن في الوقت نفسه كانوا يسدّون منافذ النجاة أمام المدنيين المسالمين من نساء وأطفال وعجائز.

أخيراً وبعد ثلاث ساعات من الطرق المعوّجة والحواجز العسكرية والتفتيش الدقيق خرجنا من هناك. كانت سيارتنا تمضي باتجاه دمشق على الجسر الواصل بين ضاحية قدسيا ومشروع دمر، وعلى الجهة الأخرى من الشارع كانت قوافل وأرتال سيارات الجيش ودباباته تدخل إلى البلدة التي لم يكن قد استيقظ معظم سكانها بعد. في طريقهم كان الجنود فرحين، يغنون ويستعرضون أسلحتهم في رتل عسكري مهيب، كأنهم ماضون إلى حرب تحرير.

كان منظرهم يلوّث سكون الصباح التشريني اللطيف ويعكر صفاءه. حتى أولادي أداروا وجوههم إلى الجهة الأخرى. «ما الذي فكّر فيه الأولاد في هذه اللحظة يا ترى؟». لا أعرف، لكنني شخصياً انشغلت بالتفكير في العائلات الكثيرة التي تركناها هناك، بعد أن استطعنا الخروج. فكّرت بأصدقائنا وجيراننا، بالذين لا يملكون سيارات خاصة تقلّهم بعيداً عن المعركة.

بعد ساعات بدأت تنتقل أخبار معارك (تحرير) قدسيا من أهلها. معارك التطهير التي استخدمت فيها أسلحة أكثر من اللازم. وكان أهل حي الورود ومساكن الحرس الجمهوري يهلّلون لحماة الديار الذين جاؤوا لينصروهم على جيرانهم (الإرهابيين).

قطعت كل الاتصالات عن المدينة. الله وحده يعلم ماذا حدث يوم الأربعاء. لكن القتلى الذين وُجدوا على الطرقات وفي حاويات الزباله دلّوا على شراسة المعركة.

إحدى صفحات المؤيدين في مساكن الحرس نشرت رسالة من جندي في الجيش النظامي إلى صديقه تقول: «لك تعال.. تعال شوف اللي كنا خايفين منهم. قوّصناهم مثل العصافير.. لك يا زلمة تقول معهن مسدسات خرز!».

هذه الرسالة وأشياء كثيرة أخرى تشير إلى أن المسلحين في قدسيا لم يكونوا يستأهلون كل هذا الجيش الجرار وذلك العتاد الحربي المرعب. انسحب الجيش في اليوم التالي، وترك المهمة لـ (الشبيحة واللجان الشعبية من حي الورود ومساكن الحرس)، الذين سوف أسميهم منذ هذه اللحظة: «الجراد».

دخل «الجراد» قدسيا. استباحوا البيوت، تفتّنوا في إظهار غلّهم وحقدهم. فتشوا في الثياب الداخلية عن حبوب الهلوسة، تلك التي يقولون منذ مدة إن أهل قدسيا يملكون الملايين منها، وهي التي تجعلهم يتقافزون راقصين على أنغام أغاني المظاهرات ويشتمون الرئيس بلا خوف.

بعد استباحة البيوت كانوا يرمون إلى داخلها زجاجات حارقة. لماذا يحرقون البيوت والمحال التجارية؟ لإخفاء الجريمة يا ترى أم للتأكيد على الخيار: «.. أو (نحرق البلد)»؟

* * *

19 تشرين الأول 2012

مرحبا..

كنت محظوظة لأن بيتي لم يُحرق. لكن بيوت الكثير من أصدقائي نهبت وبعضها حُرق. سرقوا وتفننوا كأنهم كانوا يتسلّون. خلطوا البرغل بالسكر والزيت والملح. بالوا في البيوت وعلى جدران الغرف، وما زالت

الحكايات تروى حتى اليوم عن غزوة «الجراد» تلك. والآن.. هل نعود إليها
كأن شيئاً لم يكن؟ هل تطفئ الدموع نار الغضب المشتعل في صدورنا؟
أبحث اليوم، ويبحث ربما كثيرون مثلي، عن مكان لا نشم فيه رائحة
الحرائق التي تملأ الهواء في قدسيا. نبحث عن شوارع لا نمشي فيها
على آثار الدماء والزجاج المكسور وبقايا الثياب المحروقة. نبحث عن
واجهات محال تجارية جميلة، وجدران لم يُكتب عليها باللون الأحمر
عبارات مثل: «لا تجربوا تحدونا يا صيصان». «من هنا مرّ جيش الأسد».
«من هنا مرّ جيش الله». «الأسد أو نحرق البلد»..

* * *

28 تشرين الأول 2012

مساء الخير..

هناك عجز في توفير المدرّسين في مديرية تربية دمشق. أولاً
بسبب عدم قدرة المدرسين في ريف دمشق على الحضور اليومي إلى
عملهم، نتيجة تقطيع أوصال المدينة والريف، وثانياً بسبب عودة الكثير
من المعلّمين إلى محافظاتهم الأصلية، خاصة المعلّمين القادمين من
منطقة الساحل.

في ظل هذا الواقع تضطر المديرية لتغطية العجز بقبول مدرسين لا
تطبق عليهم الشروط المطلوبة، ولا وقت لمعرفة مقدراتهم المهنية، أو
إجراء تحقيق حول وضعهم السياسي أو الاجتماعي.

عُيّنَت في إحدى مدارس المواولة معلمة قادمة من ريف دمشق لتعليم
مادة الفيزياء. المعلمة التي توقفت المدارس في منطقتها «الكسوة» كانت
قد كسرت حاجز الصمت منذ أكثر من عام، وتعوّدت أن تتكلم بهامش من
الحرية مع زملائها وتلامذتها.

بعد أن سمع الطلاب بتفجير باب توما غضبوا وبدؤوا مسيرة تأييد، ووصلت الهتافات إلى صفّها، فشارك طلاب صفّها في المسيرة متناسين وجود المعلمة ودرسها، فحاولت إيقافهم لكنهم لم يتوقفوا ومضوا مستمتعين بإزعاجها والتخلص من الدرس (الغليظ): «بالروح بالدم نفديك يا بشار...».

فعلّقت بمنتهى البرود: «لماذا تقتدون أحدهم بدمائكم؟ أليس هو بشر مثلكم.. هل يستحق أي إنسان أن تموتوا من أجله؟».

صق الطلاب وعلت أصواتهم: «الله سورية بشار وبس».

ردّت في محاولة لإسكاتهم: «عيب.. الله لا يوضع في نفس المقام مع غيره أبداً!»

«شبيحة للأبد.. لأجل عيونك يا أسد».

تخرج المعلمة من الشعبة وسط دهشة الطلاب وسخطهم، لتلتحق بشعبة أخرى، فتسبقها سمعتها: «معلمة الفيزياء معارضة!.. فتستقبلها الشعبة الأخرى: «شبيحة للأبد لأجل عيونك يا أسد».. «شبيحة جوعانين بدنا ناكل مندسين»، فتردّ أيضاً ودون أن تستفز: «كيف يعني شبيحة؟ أنتم شبيحة؟».

فيردّون بتحدٍ: «نعم!»

تسألهم بمنتهى الهدوء: «ألا تعرفون أن اسم شبيحة يطلق على الزعران وقطاع الطرق والمجرمين؟»، ثم تستفيض بحديثها عن أصل كلمة «شبيحة»، وكيف كان سلوك الشبيحة في الثمانينيات في الساحل السوري، وكيف كانوا يعتدون على كرامات الناس هناك.

«هل ترضون أن تكونوا مثلهم؟».

لكن الطلاب المراهقين كانوا يستشيطنون غضباً، أولاً لأنهم لم يستطيعوا إغضابها، وثانياً لأن المعلمة الريفية الفقيرة كانت تتكلم في

محرماتهم. حتى الطلاب المعارضون - على قلتهم - كانوا مستمتعين بلعبة مشاكسة المعلمة ومحاولة إغضابها.

في اليوم التالي كبرت القصة، وبدأت النداءات المتطرفة تلو طردها وضربها، وحتى لتسليمها لفرع أمني. لكن إدارة المدرسة لم تنصت لهذه النداءات خوفاً من ترك فراغ دراسي يزعج خططها التعليمية، واكتفت بتنبيه المعلمة بأن لا تتكلم في السياسة مع الطلاب.

وفي نهاية اليوم الثالث كانت هي تعلن رفضها الكامل لمنظومة أفكارهم وتطلق صرختها المتحدية لهم جميعاً. وكانوا هم يقفون عند باب المدرسة من أجل الهجوم عليها وضربها. نعتوها بالطائفية، واتهموها بأنها شتمت (العلويين) وبأنها مزّقت صورة للرئيس. لكنها لم تفعل ذلك (وفق تأكيد بعض المعلمات) .. وقف كثيرون لمعاقبته. وقضت عاملات التنظيف المتطرفات اللواتي وجدن فيها خصماً يستحق القتل. وقف الطلاب من أبناء الضباط مهّدين باستخدام سلطات آبائهم لكسر عنقها. ووقف أستاذ القومية الذي أراد قطع لسانها، لكن وقوفهم كعصاة استفز الكثير من المعلمين الذين وجدوا في هذا السلوك إهانة لكل المعلمين. ووجد الطلاب والمعلمون المعارضون أنفسهم في مواجهة تلك العصاة، حتى المحايدون أدانوا سلوك هؤلاء، لكن دون إغضابهم. في النهاية تمكنت بعض المعلمات من تهريبها خارج المدرسة دون أن تتأذى.

في اليوم الرابع لم تعد المعلمة إلى المدرسة، وبقيت الإدارة تشكو من فراغ في حصص الفيزياء. لكن حدث أمر غريب كما تقول صديقتي: «انشغلت عاملات التنظيف وإدارة المدرسة طوال النهار في محاولة محو عبارات تندد بالأسد والشبيحة على جدران غرف الصفوف في المدرسة المدهونة حديثاً...».

* * *

كيفك؟

أوراقى أمامي بأئسة مثلي، لكنها مزدحمة بالأحاديث والقصص والمشاهد. في كل دقيقة يمكنك التقاط مشهد في دمشق، لكن سأنقل لك حواراً جرى أمامي اليوم صباحاً:

ابنة ضابط سابق قتل في أحد التفجيرات في دمشق. كان لوالدها منصب رفيع وتم توظيفها لأنها ابنة شهيد. اقترب منها أحد المستخدمين في المدرسة وبدأ يحدثها عن وضعه:

«بالله يا آنسة لا تؤاخذيني، بس أنا مضطر أطلب منك هالطلب، ويا ريت ما ترديني!». .

«خير يا أبو أحمد؟».

«أول شيء الله يرحم أبوك ويتقبله بين الشهداء.. أبوك كان رجل عظيم وسمعته الطيبة بتشهد له».

«الله يخليك يا أبو أحمد.. تسلم».

«ابني كان مجند عند والدك الله يرحمه. وكان يحب أبوك ويحكي لنا عن تعامله الجيد مع المجندين. أحمد صار له أربع شهور مسجون. أخذوه من قطعتة العسكرية. يعني لا انشق ولا خان. قالوا إنه كان متظاهر قبل ما يصير عسكري، وإنه شتم الرئيس..! والله ابني كان يحب الرئيس والدولة.. وبحياته ما فكر يطلع مظاهرة.. هلق.. ممكن هو زعل شوية على وضع أخوه.. بس.. لازم خبرك إنه أخوه الصغير تصاوب برأسه.. وفي رصاصة منهن بعدها بمكانها. قال الأطباء إنه في خطر على حياته إذا شلناها.. عمره ست سنين. الحق عليّ أنا.. لما اقتحم الجيش الحارة خليت باب البيت مفتوح. قلت معلش بيشوف الجيش إنه نحنا فاتحين بابنا وما عنا شي نخبيه، وييعرفوا إنه نحنا منرحب فيهم. لكن رصاصة

من جندي دخلت إلى الغرفة وأصاب رأسه. كان عم يلعب بالغرفة أمامي وأمام أمه. أمه انصابت بجلطة من يومها وهلق نصف جسمها ما بيتحرك. ركضت على ابني وحملته.. قام لَمَّا شافني الجندي ناوله بالرصاص الثانية. كان رأس ابني مَتَّكي على صدري.. عند قلبي تماماً. يمكن الرصاص كانت لقلبي بس أصابته.. يمكن! ما بعرف.. بس هتبي، الحق يقال، بعدين ساعدوني وأسعفوا الولد.. يا آنسة أنا الزمن جار عليّ وابني شاب متحمس ودمه حامي.. يمكن يكون قال كلمتين بلحظة غضب.. بس والله مانو إرهابي ولا معارض.. والشاهد الله..

«بس يعني أنا شو ممكن ساعد؟»

«يعني إنت بتعرفي معلّمه اللي إجا بعد والدك.. فإذا ممكن تحكي معه تليفون أو مع زوجته، بلكي بيطلع الولد ويبرتاح قلب أمه».

«طيب ما شمله مرسوم العفو؟»

«مثل ما بتعرفي يا آنسة المتظاهر بينحط اسمه بملف الإرهاب وهداول ما شملهن العفو».

«والله يا أبو أحمد من يوم ما استشهد أبي ما حدا اتصل فينا ولا عنا تواصل مع حدا.. كثير آسفة.. لو كان بابا عايش كنت أكيد رح ساعدك!».

خرج أبو أحمد مكسوراً من الغرفة وهو يقول: «لو كان والدك عايش لما كانوا رموا بك في هذه الوظيفة التافهة... بس إلنا الله...».

* * *

7 تشرين الثاني 2012

مساء الخير أو صباحه..

في حال لم أكتب غداً فتذكري أنني، مثل كل السوريين، أرى نفسي يومياً أمشي على حبل رفيع جداً، حبل مشدود بالأمل فقط. الأمل هو ما

يبقيني متوازنة ويمنعي من السقوط. تعددت أسباب الموت حولي، فليس الموت هو من يأتي مصادفة، بل منحة العيش ليوم آخر هي المصادفة بعينها. وغداً عندما أستيقظ سوف أشكر الله لأنني ما زلت على قيد الحياة، وعند المساء سوف أتمنى أن تخطئني القذيفة المحتملة في الصباح التالي، وأن أنجو حينما أمّر مصادفة من ساحة معركة بين خندقين، وأن لا يثقبني الرصاص من الجانبين، أو أن لا تتطاير أشلائي عندما تنفجر عبوة ناسفة في أسفل سيارة (شبيخ) فأموت معه، وتختلط أجزائي بأجزائه. لن يزعجني أكثر من اختلاط أحشائي بأحشائه. ثم سوف يذكرون اسمه وينسون اسمي، وسوف يُكتب تحت صورته: «تم الدعس»، بينما يكتب على شاهدة قبري: «ماتت خطأ».

أنا لست أنا اليوم، أناي كبرت، كبرت بالألم، ولا يحس بالألم إلا صاحبه! الألم طهر روحي وسما بها. أتعرفين ماذا يفعل الألم بالروح؟ يجعلها أكثر نبلاً، الألم أهم الأحاسيس وأكثرها أصالة.

في حال لم أعد غداً، تذكرني أنني كنت هنا طوال الوقت أمشي على خيط مشدود بالأمل و(أقرع الخزان) بين الحين والحين. أتكلم عن الحب بينما الكثيرون يتحدثون عن الانتقام، وأتحدث عن الرعاية بينما تسود ثقافة التخلي. أدرك مدى تعاطفك، لكن (أنا) إن لم أعد غداً فتذكرني أنني في زحمة الكلام وتعدّد الآراء والنظريات والمؤتمرات والمبادرات، كنت فقط أقوم بما يتوجب علي القيام به.

* * *

21 تشرين الثاني 2012

مرحباً..

كنت طوال أسبوعين أضع صفحة «الورد» هذه أمامي ثم أغلقها،

وعندما يسألني الكمبيوتر عما إن كنت أريد حفظ التغييرات أضغط على كلمة (لا)!

الذي يجعل الكتابة أمراً شاقاً هو تداخل الأمور في ما بينها. الكثيرون يعبرون عن الموضوع بكلمات مثل: «ما عدنا نعرف شي من شي»، «تلخبطت الأمور وفاتت ببعضها».. الخ.

أكثر ما أجاده النظام في العامين الماضيين هو خلط الأوراق. وضع جميع الأوراق على الطاولة ثم خلطها. من السهل خلط الأشياء، ولكن ترتيبها بعد ذلك هو الأمر الصعب والشاق. لا بد أن كل سوري اليوم يحاول أن يرتب شيئاً على الأقل في عقله لكي يفهم ما يجري. لكن تزداد صعوبة الأمر كل يوم أكثر فأكثر.

في شهر أيلول عام 2011، كنت أجلس مصادفة مع زميلات لي في المدرسة. كنّ مواليات جداً وإحادهن كانت زوجة ضابط مخابرات. سألتني يومئذ: «ما الذي جرى عندكم البارحة؟»، قلت ببساطة: «كان هناك مظاهرة ثم أطلقوا النار على المتظاهرين فقتل أربعة شبان، أحدهم في الخامسة عشرة، وجرحت امرأة». فردت إحادهن بعد صمت محرج: «.. الله لا يوفقهن هالعصابات المسلحة شو عم بيسووا؟»، فأجبتها على نحو لم أتوقعه أنا نفسي في ذلك الوقت: «بس الذين أطلقوا النار هم رجال الأمن، وأنا رأيتهم بعيني».

يومذاك لآمني زوجي على قولي الحقيقة، وقال لي بعض الأصدقاء إنني قد أعاقب بشدة إن قررت إحادهن كتابة تقرير عني للأجهزة الأمنية. لكن أياً منهن لم تفعل ذلك. الذي حدث أنه انتشرت فكرة أنني معارضة بين المعلمين والطلاب، وبدأ باقي الزملاء يمطروني بالشائعات على المعارضين الخونة، المعادين للوطن، المتعاملين مع أميركا وإسرائيل من أجل تقويض البلد الممانع والمقاوم.. الخ. وبعد ذلك انتقلت للتعليم في مدرسة أخرى.

اليوم بعد أكثر من سنة، لم يعد بالإمكان التحدث عن عصابات مسلّحة (هلامية) تقتل المتظاهرين، وعن جيش ورجال أمن أخلاقيين. لم يعد بالإمكان إخفاء الحقيقة. فالجميع يقول الحقائق أو على الأصح جزءاً منها، لكن اليوم صار بالإمكان الالتفاف على هذه الحقائق وتبريرها. الجميع يعرف أن الجيش يقتحم البيوت ويسرقها، وأن اللجان الشعبية تسرق ما يتركه الجيش في البيوت ثم يحرقونها، وأنهم يقتلون ويختطفون ثم يطلبون فدية مالية. لكن كل ذلك مبرر لدى الموالين: عندما يقال أمامهم أن بعض الموالين تركوا أشلاء ضحاياهم على الأرض وداسوا عليها ودخلوا لسرقة المحلات المتضررة بفعل الانفجارات، يردّون عليك: «نحن في زمن حرب وكل شيء في الحرب مسموح»، «الجيش يحقّ له أن يقتل ويسرق ويفتك لأنه في حالة حرب»، «يحقّ للشبيحة أن يأخذوا من الناس سياراتهم وذهبهم وموبايلاتهم، ولا يحق لأحد أن يقول لا، لأننا في زمن حرب».. هكذا ستقول زميلاتني عندما سأقول لهن الحقيقة مرة ثانية، مثلما قتلها قبل أكثر من سنة: «رجال الأمن هم من أطلق النار!». هذه المرة لن يحاولوا الإنكار، بل سيقولون: «بيستاهلوا.. لازم موبس يقتلوهم.. لازم يسحقوهم سحقاً»!

ذاك الصبي عندما خلط الأوراق بدّل كلمة «ثورة» بكلمة «حرب»، وكلمة «شعب» بكلمة «سنّة»، وكلمة «نظام» بكلمة «دولة»، وها نحن نقوم يومياً، كل حسب موقعه، بترتيب الأوراق التي خلطها ويخلطها يومياً.

* * *

22 تشرين الثاني 2012

مرحباً..

قبل أيام انفجرت عبوة ناسفة في «ميكروباس» في الحي المجاور،

وكان جارٌ لنا بين القتلى. مع أنه من المفترض أن يكون حاجز الجيش هو المقصود بالتفجير، إلا أنه وبالمصادفة لم يُقتل عسكري واحد في الحادث، ومعظم القتلى كانوا من المدنيين. أما الجرحى فقد أُضيفوا إلى آلاف المعاقين السوريين.

كان جارنا الشاب قادمًا من عمله مساءً وكانت زوجته بانتظاره. جارنا مدني من الطائفة العلوية.

قبل أن تسمع الزوجة بالخبر كان معظم الجيران ونحن منهم قد عرفنا الحقيقة. رأيتها وهي تقضم أظافرها في انتظاره. ترفع الهاتف وتعيد الاتصال مرات ومرات، ويتغير لون وجهها حين يأتيها الصوت اللئيم على الجهة الأخرى: «الرقم المطلوب مقفل أو خارج التغطية».

هل شعرتُ للحظات بالذنب؟ ربما. ببساطة لأننا لم نعد نعرف من منا القاتل ومن القاتل، اختلط الأمر علينا. وهو هناك، الدكتاتور المريض، يضحك ويخلط الأوراق، ويجعلنا نصطدم بعضنا ببعض، وبأشلائنا، في لعبة لن تنتهي إلا برحيله.

«كوني قوية.. لا تخلي الناس تضحك عليك. إنَّ صرتي أمه وأبوه للصغير.. بدك تكوني قوية!».

«هل تعرفون كيف ينقطع فجأة خيط حياة كاملة؟ كنا هناك نعيشها، ونعتقد بأنها قوية وثابتة، وفجأة نكتشف أنها واهية: تتركين بيتك، مرطبات المخلل الذي تفننت في صنعه، السجاد الذي فرشته نظيفاً من أجل برد الشتاء، بيدونات المازوت التي وقف طويلاً منتظراً دوره للحصول عليها ممتلئة. تتركين القهوة التي ستشربانها صباحاً وقميص النوم الدانيلا الذي كنت ستلبسينه للمرة الأولى هذا المساء. تتركين رغبات كثيرة وخططاً مؤجلة لأن الحياة سوف تنقطع فجأة، عند اقتراب الرصاص من الرأس أو انفجار عبوة ناسفة عند القدمين».

كان الصغير يقفز أمامنا مثل مهرج، في محاولة واعية ربما لتبديد حزن أمه، وكاد ينجح أحياناً. هو لن يدرك قريباً أنه أيضاً انضم، منذ ساعة فقط، إلى عشرات آلاف اليتامى في سورية. ستمضين الآن وحيدة يا جارتى، وسيتجمع الآخرون لتقرير مصيرك ومصيره.

«كيف سمحت لك أن تقرر دائماً عني؟! طيب قل لي الآن ماذا أفعل! سوف أتعلم المشي من جديد بعد أن حرمني رحيلك المفاجئ العكاز الوحيد الذي اتكئ عليه! عرجاء أنا من دونك.. «سقف بيتي واطئ»، كما يقولون عن الأرامل عندنا، عبوة تافهة حوّلتني إلى أرملة بلا عمل وبلا معيل.. أرملة بثوب أسود طويل».

لن تقرأ جارتى كلماتي هذه، لكنني وددت أن أقول لها: «لست وحدك من قطع العنف سير حياتهن الطبيعي، لقد أصبحت بلادنا مسورة بالنساء المتشحات بالسواد. احضني صغيرك جيداً أيتها الأرملة، فربما يملأ الضنى ثقب الفاجعة في الروح.. ربما».

* * *

23 تشرين الثاني 2012

مرحباً من جديد..

سأكمل لك قصة عزاء جارنا

في بيت الرجل الضحية اجتمع الكثيرون، وحضرت الكثير من النساء اللواتي يجمعهنّ الانتماء الطائفي مع الفقيد وزوجته.

كانت إحدى الجارات توصي الجارة الشابة وتغمز إلينا: «لا تخلي الناس تشمت فيك.. كوني قوية». كانت جاراتنا المحجبات يبيكين وهن يحاولن إظهار تعاطفهن الشديد مع الجارة الشابة، بصدق ومن غير

إدراك مغزى الجملة الأخيرة. «اللّٰه لا يوفق اللي بيئذي الناس الأبرياء مين ما كان يكون»، كنّ يرددنّ، لكن أصواتهن كانت منخفضة جداً للأسف.

تقف صبية شابة، ترفع صوتها كأنها تقدّم خطبة أمام جمع غفير: «أولئك المجرمون لا يريدون إسقاط النظام، هم يريدون لنا أن نبقي متخلفين وغير متعلمين.. يغارون من حضارة سورية وتقدمها».

كان من الممكن أن تمضي أكثر في محاضرتها، لولا أن الزوجة المكلومة رفعت رأسها وسألت عن صغيرها. إحداهن صرخت: «إلى متى يا ربي تمتحننا.. واللّٰه صبرنا كثير.. حاجي بقى!».

يجب أن تعرفي أنها المرة الأولى التي أحضر فيها عزاءً في بيئة موالية، لكنني حضرت الكثير من المآتم في ريف دمشق، وكنت أسمع الجملة ذاتها لكن بطريقة مختلفة: «اللّٰه يمتحن صبرنا وإيماننا به».

إحداهن أيضاً رفعت صوتها فجأة: «إيمتى بده يخلصنا بقى و...؟»، وتقصد هنا الرئيس، واعتقدتها ستكملها بـ(ويرحل)، لكنها، ولمفاجأتي، أكملت جملتها: «إيمتى بده يخلصنا ويقوم بعملية الحسم؟!».

ليست المرة الأولى التي أسمع فيها الموالين يطلبون من الرئيس أن يستعجل في عملية الحسم. في المدرسة سمعت إحداهن تقول: «لو أن الرئيس منذ البداية قمعهم بشدة لما وصلوا إلى هذا الحد من القوة»، وكدت أقول لها: «لعلّٰه كان يرميهم بالورود إذًا؟!».

* * *

1 شباط 2013

مرحباً..

قُتل باسل في مطار «تفتاز». أسبوعان وهم ينتظرون الإمدادات من

القيادة، ولا من معين. في المرة الأخيرة التي عاد فيها في إجازة قصيرة لرؤية عائلته نصحه أقرباؤه بالألا يعود إلى المطار. ابن عمه جندي في الجيش الحر، أكد له أن المطار سيقع قريباً في يد الجيش الحر أو (المعارضة المسلحة)، لكن باسل راهنه بالمقابل أن النظام قوي، وأن المطار محصّن ومحال أن يسقط. وقال في نهاية نقاشه إنه مجرد محاسب في المطار ولا يحمل سلاحاً، وهو بحاجة إلى راتبه لمساعدة أمه في تربية إخوته الخمسة وأخيه المعاق. الأم شجعت ابنها على العودة إلى ما كانت تسمّيه «وظيفة»، ودعمت رأيها بأن التخلف عن الالتحاق بقطعته العسكرية قد يكلفه حياته، فهم لا يرحمون الشباب الذين يتركون قطعاتهم العسكرية، ويعتبرونهم خونة وجزاؤهم الإعدام.

كل يوم كان باسل يتصل بأمه. قبل ثلاثة أيام من مقتله قال لها: «ادعي لنا يا أمي من أجل أن يعيننا الله». في اليوم التالي قال لها: «هرب الضباط وتركونا.. نحن محاصرون ولا ذخيرة معنا ولا طعام.. وعدونا بالمساندة ولم يفوا بوعدهم». في اليوم الثالث قال لها: «قولي لإخوتي ولأقاربي ولكل أصدقائي بأن يسامحوني».

بعد ساعات ظلّ هاتفه يرنّ ولا مجيب. كانت الأم على الجهة الأخرى من الهاتف تننّ متألّمة. تعيد الاتصال مرة ومرات وما من مجيب. بعد إلحاح شديد ردّ أحدهم على الهاتف: «.. ابنك مات. دفنّا مع رفاقه هنا في أرض المطار.. الله يرحمهم ويسامحهم.. أنا من الجيش الحر. أنا آسف.. إنها مشيئة الله».

الأم، بعد أن تجرّعت حزنها حتى منتهاه، وأقامت حفل تأبين رمزي للابن الذي دفن بعيداً في مكان لا يمكن الوصول إليه، عادت لتتذكر بأن لابنها راتباً تحتاجه لكي تطعم إخوته الخمسة وأخاه المعاق، كما أنها سمعت ابنها يقول إنه في حال استشهد ستعطيها الدولة تعويضاً مجزياً. مضت إلى إدارة الأركان العامة بعد مدة. قالت لهم إن ابنها استشهد في

مطار «تفتناز» وأنها تريد أن تعرف الإجراءات اللازمة لاستلام راتبه ولاستلام التعويض. لكنهم أجابوها بمنتهى البرود: «وما أدراك أن ابنك أستشهد ولم ينشق وينضمّ للمسلحين الإرهابيين؟ لا نستطيع إعطاءك شيئاً حتى تظهر جثته. فقط عندما تظهر جثته نعتبره شهيداً».

ملاحظة: الكثير من المجندين الذين يقتلون في معارك النظام ضد أعدائه تضيع جثثهم أو يدفنون في مقابر جماعية، ولا يستلم أهاليهم أي تعويض ولا تصرف أي رواتب لهم. هذا طبعاً لا ينطبق على الضباط، خصوصاً أولئك الذين لا يُشكّ بولائهم.

* * *

2 شباط 2013

مطار «تفتناز» أيضاً.. (القصة بلسان ضابط طيار):

أحد الضباط عاد إلى عائلته بعد أن انتشر خبر مقتله في مطار «تفتناز». هو طيار وقيل بأن طائرته أصيبت وهي تحاول الهرب. نُقل لي أن الرجل روى الحكاية كالتالي:

«كنا ننتظر الإمداد لكن القيادة خذلتنا. لم يفكروا حتى بإرسال الطعام. كنا محاصرين وهرب في أيام الحصار الكثير من الطيارين والضباط، ونُقلت معظم الطائرات. لكنني لم أكن لأتخيل أن القيادة يمكن أن تضحي بمن بقي يحمي المطار حتى آخر رصاصة، بتلك السهولة. اتصلت بالقيادة وقلت لهم إن هناك طائرتين فقط صالحتين للطيران، وهناك العديد من المجندين وبعض الضباط، وسيُقتلون جميعاً إن تركتهم. أمرتني القيادة بنقل الضباط فقط. كان عددهم قليلاً. مضينا إلى الطائرة لكنها لم تستطع الإقلاع. كان المجندون قد تعلقوا بأجنحتها. كانوا قد اعتزموا أن لا يسمحوا لنا بالطيران. أمرناهم ولم

يستجيبوا للأوامر، بل بدوا عنيفين. تركت عندئذ الطائفة وقلت لهم: خلص.. نعيش كلنا أو نموت كلنا. امضوا في الاتجاه الذي يمضي نحوه الرصاص. وزحفنا على التراب وبين الأشواك نحو عشرين ساعة حتى تمرّقت ثيابنا.. ثم نجونا».

طبعاً، أنا شخصياً لا أصدّق الجانب البطولي في اللقطة الأخيرة من قصة الضابط، لكن إن ربطناها مع قصة باسل يمكن أن تتشكّل لدينا صورة عن اليوم الأخير في المطار، وهو ربما يشبه إلى حد كبير مشهد التعارك على قوارب النجاة في فيلم «التايتنك»، وحتى التمييز بين من يحق له أن ينجو ومن لا يحق له ذلك.

* * *

5 شباط 2013

مرحباً..

تحت جسر الثورة كان وما يزال هناك سوق للمفروشات يسمى بـ«سوق الحرامية». كل يوم أمرّ من جانب هذا السوق في طريقي إلى عملي، خاصة بعد أن أغلقت معظم الطرق الأخرى في قلب المدينة. كل يوم يربعني نمو هذا السوق العجيب كالسرطان في قلب دمشق. البارحة عندما كنت أمرّ من هناك رأيت امرأة في الستينيات كما بدا لي، تجلس على الرصيف مقابل بعض الأثاث المنزلي المستخدم. كانت تبكي بحرقة لدرجة لفتت نظر الكثير من المارة. وقفت قربها ولم أستطع منع نفسي من سؤالها: «عفواً.. لماذا تبكين؟ هل أساعدك في شيء؟»، لم تنظر إلي بل أشارت بإصبعها إلى طقم مفروشات كحلي، وقد بدا الطقم جديداً وثمانياً، ثم قالت بصوت عالٍ: «هاد الطقم إلي!».

السوريون يتبادلون أغراضهم! سوري يسرقها بقوة السلاح والسلطة،

من سكان الأحياء المغضوب عليها، ثم يبيعها لتجار سوق الحرامية، وسوري آخر يشتريها لأنه نزح من بيته واستأجر بيتاً يحتاج إلى فرش جديد.

هناك سوق في حمص يسمى سوق «السنة»، وهناك سوق للأغراض المسروقة في السومرية. هناك رجل أعرفه أعاد شراء أثاث منزله كله من سارقيه بخمسين ألفاً، بعد أن أقتع البائع أن الأثاث يعود له. وهناك طبيب أسنان عاد لشراء أجهزته نفسها من السارق، دون أن ينطق بحرف خوفاً من أن تضيع الصفقة.

السوريون يتبادلون منازلهم!

كثيرون غادروا سورية بسبب الخوف من بطش النظام. هؤلاء إن كانوا يسكنون في مناطق موالية وهم معارضون تصبح بيوتهم غنيمة من غنائم الحرب. في ضاحية الأسد، وهي منطقة محسوبة على الموالين، تسكن صديقة لي. الشقة المقابلة لبيتها تعود لسيدة معروفة بمعارضتها للنظام. قبل عدة أشهر جاء أحد الضباط، كسر قفل الباب ودخل البيت، وأصبح بعد ذلك مالك البيت على مرأى ومسمع كل سكان الحي الذين لم يتجرؤوا على السؤال، غير أن الكثيرين منهم لم يخفوا شماتتهم بالمرأة المعارضة «الخائنة». صديقتي حاولت أن تسأل: كيف؟ ولماذا؟ وبأي حق أخذتم بيت السيدة؟ لكنه أخرسها بجملة وحيدة: «ديري بالك على ابنك.. يمكن ما عندك غيره حسب معلوماتي»!

بالمقابل صديقة أخرى كانت تسكن وعائلتها في حي حمصي سني. تركت بيتها بعد أن هُدد زوجها من قبل أقاربه، لأنه محسوب على المعارضة، ومن قبل بعض المعارضين المتطرفين لأنه علوي. جاءت وعائلتها إلى دمشق، واستأجرت بيتاً. ولكن قبل أن تترك بيتها في حمص أجبرته لعائلة سنية. تقول إن المرأة التي استأجرت المنزل لم تعد ترد على مكالماتها منذ عدة أشهر. تقول إنها تخاف بأن لا تتمكن من العودة

إلى هناك أبداً، فالكراهية التي نمت خلال هذين العامين من الصعب أن
تصغر في عشرات السنين.

السوريون يتبادلون العنف والكراهية والموت، كما يتبادلون الحب
والتعاطف والملاجئ والبيوت.. وكما يتبادلون الأغذية والثياب والطعام.
وهم يتقاسمون الخوف والرعب والموت الذي لا يفرق بينهم، فالموت
معظم الأحيان يأتينا مسرعاً، فلا ينتظر أن يسمعنا ليعرف لهجتنا أو من
أي المناطق أتينا..

* * *

7 شباط 2013

مرحباً..

لم تنتظر ابنتي الصغيرة حتى نصل إلى البيت لتخبرنا مدى سعادتها
لاكتشافها أن صديقتها المقربة «معارضة»!

– كيف عرفت؟ سألتها.

– كنا نتحدث عن الموبايلات، وقلت لها إنه عندما أكبر سأشتري
موبايل (جلاكسي) بخمسة وعشرين ألف ليرة. فردّت: «مو لنكون
خلصنا من هالرئيس؟».. أكيد جودي معارضة. حكّت لي جودي عن ابنة
جيرانهم الصغيرة. أمها تقول لها إن أبوها ببلودان، بس هنّي أخدوه!

– مين أخدوه؟ أسألتها.

– شوها لسؤال الغبي ماما؟ بس أنا قلت لها بكرة أبوها بيطلع مثل ما
طلع بابا وخالي والكل.. هي متعلقة بأبوها.. وأمها بتكذب عليها.. وجودي
كل يوم بتروح بتلعب معها. معقول ما يطلع أبوها ماما؟

المعتقلون.. غصة في قلوبنا.

أيهم غزول لم يعد، قتلوه تحت التعذيب. كثيرون جداً لم يعودوا.

أو عادوا معاقين جسدياً أو نفسياً.. هناك شاب أعرف عائلته. هو في الرابعة والعشرين أيضاً مثل أيهم، منذ أربع سنوات تبرعت له أخته بكليتها.. اعتقلوه وكان أول شيء فعلوه هو ضرب كلية الأخت في جسده. أرسلوا جثته إلى أهله مع تهديد بعدم إقامة عزاء. هناك الكثير من القصص عن المعتقلين والتعذيب حتى الموت. إحدى المعتقلات اللواتي أُفرج عنها الشهر الماضي روت لنا أن أحد أهم أشكال تعذيب النساء هو جعلهن يحضرن حفلة تعذيب للشباب. قالت: «أن يجزّوكِ إلى غرفة التعذيب ويوقفوكِ أمام شاب معلق لأيام من يديه أو قدميه.. شاب يئن من الألم ويرجوهم أن يريحوه قليلاً، ثم يكون ردّهم أن ينهالوا عليه بالضرب والشتائم، وإرغامك على المشاهدة، هو أسوأ أنواع التعذيب على الإطلاق وأكثرها وحشية».

أعود إلى حديث الصغيرتين.. والآن، ماذا إن لم يعد والد الجارة الصغيرة؟!

* * *

20 شباط 2013

مرحباً..

العمة التي أريد قصّ حكايتها اليوم هي امرأة من دير الزور، دخلت العقد السابع من عمرها قبل سنة. توفي الزوج قبل عشر سنوات، وسافر الأولاد ونسيها الأحفاد، وخانتها قدمها فأقعدتها على كرسي متحرك.

لكن ذلك لم يكن يؤرق الأرملة فهي لم تكن وحيدة. أسكنت في الطابق العلوي من بيتها الكبير عائلة فقيرة اهتمت بها طيلة عشر سنوات، ورعت كل شؤونها، وعاملتها كأُم. ثم أعطت الطابق السفلي لعائلة نزحت من حمص قبل عام ونصف. وعاشت عيشة كريمة من إيجار محل تجاري

بعد أن توفي الزوج. كل ذلك كان قبل أن تُغير طائرات النظام على حيّها، فمضت الأسرة الفقيرة في رحلة نزع لم تنتهِ حتى الآن، وعادت الأسرة الحمصية إلى تدمر، أما هي فقد اصطحبها أقرباء لها إلى دمشق لتسكن معهم في أحد البيوت هناك.

وهنا ستكون حكايتها مثل حكايات الكثيرين. شهور من الإقامة في بيوت الأقرباء تارة والغرباء تارة أخرى، شهور من الشعور الدائم بالمهانة لم تستطع المرأة الكريمة تحمّله.

مضت أشهر وهي قابضة على كرسيها المتحرك، تجتُر إحساسها بالعطالة والحاجة. وكان جزء من جسدها يتهدّم وينهار مع كل خبر يأتيها عن بيتها أو محلّها: الكليتان والرئتان والقلب و.. و.. قررت أخيراً أن ترحل. تمّوت جسدها جزءاً بعد آخر. ثم دخلت في غيبوبة طويلة.. إلى أن أسلمت روحها.

عند موتها ثارت ثائرة أقربائها وكل من عرف المرأة الطيبة. خرجوا من المشفى ينادون: «لا عاش عمرك يا بشار.. لا عاش عمرك يا بشار». أعطى أهل الخير العمة قبراً في «نجه»، ودُفنت غريبة، هكذا قالوا.

«لماذا غريبة؟»

«هي لم تغادر دير الزور منذ عشرات السنين. كانت تقول: الدنيا بالنسبة لي هي دير الزور.. الله لا يحرمني اندفن بترابها».

العمة التي لن أسمح لنفسي بإعطائها اسماً مستعاراً، ولن أستطيع كذلك البوح باسمها الحقيقي، هي شهيدة القهر والذل والتهجير والحسرة والخسارة. هي ضحية نسيان التفاصيل الإنسانية الصغيرة..

السلام لروحك أيتها العمة الطيبة!

* * *

مرحباً..

قبل أيام حدث انفجار ضخم في منطقة المزرعة. اهتزّ البناء، تكسّر زجاج النوافذ، وتخلّعت الأبواب، فمكان التفجير لا يبعد كثيراً عن مدرستنا. المشكلة كانت حالة الهلع والخوف عند التلاميذ وعند الأهالي الذين هرعوا إلى المدرسة للاطمئنان عن أطفالهم.

كانت لحظات رعب حقيقية.. من الصعب أن أصف لك ما حصل، فلم أكن حينذاك مراسلة لديها الوقت لتشاهد ما يحدث وتسجّل التفاصيل. تركت ورائي زميلتي، التي سقطت النافذة عليها، وركضت أبحث عن طفليّ في مبنى مدرستهما القريب. ركضت أمومي أمامي على الدرج الطويل المغطّى بشظايا الزجاج. مشيت على يدي وقدمي، مشيت على أربع، صعوداً على الدرج حيث ظننته مكان الانفجار. حين وصلت استقبلني عويل جموع الأطفال، عويل منتظم. كانوا جميعاً يبكون، على الوتيرة نفسها، ربما معلماتهم مثلي ركضت أمومتهم إلى حيث صفارهنّ. لم أعرف كيف أوزع حضني وقبلاتي على بناتي وأصدقائهن. حضنت الجميع، وجدّتي ألهج: «خلص.. هدوء.. خالص.. مشي الحال.. خالص حبوباتي.. أنا هون». لكن بنتاً منهنّ لم تسكت، بقيت تصيح باكية: «بيكون مات ناس كثير.. ببيكون مات ناس كثير..». ولم أجبها!

من النافذة كنت أرى كتلة كبيرة من الدخان الأسود الكثيف، ونزولاً إلى الطابق السفلي، كانت عيناى تصطدمان بعيون أمهات باكيات، وبوجوه شاحبة لآباء خائفين.

بعد ذلك اليوم لم يعد الكثير من التلاميذ إلى المدرسة. الكل يردد: «حق الطفل في الحياة أهم من حقه في التعليم».

وهنا لا بدّ أن أذكر أن إدارة المدرسة تثبّثت إلى سلوك المعلّمت

ذاك، وأصدرت قراراً جديداً، وهو أنه في حال وقوع انفجار جديد يجب أن تلتزم كل معلّمة بالبقاء في غرفة صفّها تحت طائلة العقوبة!

* * *

7 آذار 2013

مرحباً..

في البناء الذي تسكن فيه المعلّمة خديجة شقة خالية مقابلة لشقّتهم الكائنة في وسط دمشق. أجر المالك الشقة حديثاً، وأول شيء فعله المستأجر الجديد هو وضع كاميرات على مدخل البناية وكذلك على مدخل شقته. إحدى هذه الكاميرات كانت موجهة إلى باب شقة المعلّمة. زوجها المحافظ لم يعجبه الأمر، وطلب من صاحب البيت أن يطلب من المستأجر الجديد، الذي لم يكن قد رآه بعد، أن يبعد عدسة تلك الكاميرا عن باب منزله. لكن الرجل لم يستجب، مما أغضب زوج المعلّمة، فقال للمالك: «قل للمستأجر إنه في حال لم يغيّر زاوية تلك الكاميرا فسوف أكسرها...».

لم يكن الرجل الغاضب يعرف أن هذه الجملة ستكلفه الكثير. ولم يكن يعرف أن المستأجر الجديد هو «داعية إسلامي»، وضيف دائم على قنوات النظام التلفزيونية، يفتي بقتل المتظاهرين والثوار وتجريمهم، ويبرّر للنظام جرائمه. يقول إنه مهدد من قبل «العصابات الإرهابية»، والكاميرات من أجل حمايته، وكذلك الرجال المسلّحون أمام البناء. هذا ما قاله المالك للرجل الغاضب: «العلقة معه صعبة»، قالها ومضى!

وفعلًا كانت «العلقة صعبة»! فكل رجال الأمن أصدقاء الداعية الإسلامي المعروف، ولا أحد يستطيع الوقوف في وجهه أو تهديده. وبالفعل لم تمض ساعات حتى كان رجال الشرطة يقرعون الباب

ويطلبون الزوج للتحقيق. لكن الرجل هرب من البيت ولم يسلم نفسه. حاول أقاربه الوصول إلى أعلى المناصب لحل المشكلة. عرفوا أن هناك دعوى بحقه، وقد جاء في الدعوى: إن زوج المعلمة قد تهجم على الداعية وهدد بقتله، وأنه يتعاون مع الجيش الحر وينقل لهم الأسلحة وينقل جرحاهم بسيارته.

طبعاً، كل هذا الكلام غير صحيح، فالرجل (حيادي)، وهو طبيب فلسطيني معروف وله علاقات جيدة بكبار رجال الدولة. تدخل هؤلاء للتوسط له مع الرجل الداعية من أجل سحب دعواه. لكن الرجل بقي مصراً على معاقبة العائلة. اتصل بأصدقائه من رجال الأمن وطلب منهم ان يأمرؤا وزير التربية بطرد الزوجة المعلمة من عملها، وهذا ما حصل. السبب الذي قاله ضابط الأمن للوزير: إنها معارضة ولا تستحق أن تأكل من خير الدولة!

عندما كانت إحدى زميلاتنا تسرد لنا هذه الحكاية علّقت إحدانا: «يا ربي واللّه شيء بيخوف. ما عاد لازم نحكي شي.. يعني لولا رواتبنا كنا شحذنا».

علّقت أخرى: «الجهات الأمنية تأخذ حالياً بالتقارير، يعني إذا هلق بيجي على بالي إنتقم منكن، بكتب فيكن تقرير وبيعته مثلاً للجوية... يا إمي، واللّه هدول لحتى يتحققوا ويعرفوا إنه التقرير كذب، بكون اللّه يرحمكن». تنتهي الحكاية بضحكات مرتجفة وخائفة ويمضي كل منا إلى عمله.

تذكرت.. البارحة أسمعني المسؤول الحزبي في المدرسة حديثاً عن التقارير الأمنية، وختم كلامه بتمرير يده أمام فمه بحركة تعني: «خلص.. اسكتي!».

* * *

9 آذار 2013

«أين ذهبت شرطة المرور؟»

في كل مرة نمرّ فيها بسيارتنا من شوارع دمشق نسأل السؤال نفسه، ولا جواب. في المرات النادرة التي أرى فيها شرطي مرور أفرح وأشعر بالطمأنينة. أتأكد من وضع حزام الأمان، وأقول في نفسي: سوف يوقف الآن السيارة التي أمامي، والتي أخفيت أرقامها تحت طلاء أبيض على نحو مقصود. لكن شرطي المرور لا ينظر إلى أحد! شرطي المرور النادر في شوارع أقدم عاصمة في التاريخ لا يوقف السيارات التي بلا نمرة ظاهرة، ولا يوقف الذين يتجاوزون إشارات المرور، ولا يكتب المخالفات للناس الذين لا يضعون حزام الأمان.. حزام الأمان؟ هل جنت؟! يا للترف!

* * *

10 آذار 2013

مرحباً..

محمد تلميذ في الصف السابع. يتأخر باص المدرسة الذي يقلّه وكثيراً من رفاقه صباحاً بسبب الحواجز والاشتباكات على الطريق. يسكن محمد في مساكن عدرا العمالية، وهي مساكن قريبة من مدينة عدرا التي يحاول الجيش الحر السيطرة عليها منذ أسابيع. وأيضاً تعتبر عدرا المركز الذي يمدّ دمشق وريفها بأسطوانات الغاز. لكن المساكن العمالية حيث يسكن الطلاب ما زالت منطقة تابعة للجيش النظامي. يأتي باص التلاميذ من منطقة مساكن عدرا إلى دمشق يومياً. يجتازون حاجزاً للجيش النظامي في منتصف الطريق.

روى لي محمد إن الحاجز أوقفهم اليوم رغم أن الاشتباكات كانت

تجري قريبة جداً بين الجيشين الحر والنظامي. فتح الجندي باب الباص وطلب هويات الطلاب الأكبر سناً وهوية السائق، ثم وضعها جميعاً في جيبه دون أن ينظر إليها. بدأ بعد ذلك صوت الرصاص يصبح أقرب، فأخفض التلاميذ رؤوسهم، ونزل السائق ليرجو الجندي أن يعطي الطلاب هوياتهم ويتركهم يمشون: «اللَّهُ يخليك هدول صغار.. يا ابني واللَّهُ لازم ما نكون هون.. اللّهُ يخليك ولادك وأخواتك خرينا نمز». لكن الجندي لم ينظر إليه، ولم يخرج الهويات من جيبه، فقد كان منشغلاً بتهيئة رشاشه مستنداً على مؤخرة الباص، وكان ينادي على زملائه.

«كانوا قد جئوا تماماً»، قال محمد: «الجنود الآخرون أيضاً احتموا بالباص.. ثم بدأ الصغار يبكون». سألته «وأنت؟». قال: «أنا ما خفت.. تعوّدنا. نحن صارلنا شهرين كل الوقت عم نسمع أصوات هاون ورصاص. بالعكس صرنا إذا ما منسمعها منقلق..». يختم جملة بضحكة.

«وبعدين شو صار؟».

«بعدين لما السائق شاف الضابط ركض لعنده، وصار يترجّاه، فأمر الضابط الجندي بإعطائنا الهويات وإطلاق سراحنا».

عندما كان محمد يحكي لنا الحكاية كانت زميلة موالية تستمع إليه. فعلقت في النهاية: «إيه عادي معلش، هاي أخطاء بتصير.. حرام الجنود كمان».

كان بإمكانني أن أتلو عليها الكثير من القوانين والمعاهدات الدولية التي تسمّي هذا السلوك الذي تقول عنه (خطأ) بأنه (جريمة)، لكن لا يمكنني الكلام اليوم. أحلم بيوم واحد أستطيع فيه الحديث دون أن أخشى الاعتقال أو الطرد من عملي.

يا حلمي كم بات قريباً.. يوم واحد.. يا إلهي!

مرحباً..

في «جديدة عرطوز» بيوت جميلة وكنائس وجوامع ومجالس للموحدّين، فيها شوارع واسعة، وحدائق، وأطفال يلعبون، ومحلات للماركات العالمية التي قلما يدخلها مشترون. فيها أيضاً فرن لا يفضّله الميسورون ولا متوسطو الدخل، لأنه سيأخذ ساعات من وقتهم للحصول على ربة خبز. لكن بالمقابل، في الحارات القديمة لن ترى محلات ولا أطفالاً يلعبون ولا حتى سوقاً للخضار، بل يخفي معظم أصحاب البيوت الطينية العتيقة، وتروي لك أبواب المحلات المكسّرة وجدران البيوت وآثار الدخان الأسود المتصاعد على الجدران من النوافذ أي معارك قاسية شهدتها البلدة.

يشير صديقي إلى محل على الناصية: «حين احتلوا متجر الخضار هذا بدؤوا ينادون على الناس لأخذ الخضار المنهوبة، ثم بعد ذلك تحوّل المحل إلى ثكنة عسكرية! والله أعلم شو صار بصاحبه. وفي ذلك المحل خبأ رجل أخاه وكان جندياً في الجيش الحر، وبعد الاقتحام همس أحد الشبيحة من الجيران في أذن الضابط شيئاً وأشار إلى المحل، عندئذ أمر الضابط بإحضار البنزين وأشعل النيران في المحل. «لو تشوفي شو صار بأخيه خارج المحل، كان عم يصرخ وكل «جديدة عرطوز» عم تسمعه: أخي جوا.. أخي جوا من شان الله!».

أوقفنا العسكري على الحاجز، كتب على باب خلفه: «أين أنتم يا صراصير الجيش الحر». وعلى محل مكسور ومنهوب كتبت عبارة: «من هنا مرّ جنود الأسد».

يكمل صديقي حكايته: «في اليوم التالي وحين انتشرت حكاية الرجل المحروق حياً أمام عيني أخيه بين السكان، كادت حرب طائفية تشب بين طائفتي الرجل والجار».

في «جديدة عرطوز» تلال من التراب تذكرك بجدار الفصل العنصري، وهي تفصل البلدة القديمة المنكوبة والمهانة عن أحياء «المواطن الأبيض»، وهناك نساء ورجال كانوا يتظاهرون قبل أشهر، ويرددون أغنيات «القاشوش»، ويحفظها أطفالهم غيباً. كان هناك متظاهرون يخططون لمظاهراتهم كما يخطط المهندس مشروعه، ويدرسون جيداً هتافاتهما ولافتاتهما وكيفية حمايتها، وهنا صدحت حناجر آلاف النساء في أجمل المظاهرات النسائية في ريف دمشق، ومن هذه الشرفات المهجورة كانوا ينثرون الأرز والورد على المتظاهرين والمتظاهرات.

وفي «جديدة عرطوز» ما زال هناك وراء الحاجز رجال ونساء متعبون مختبئون في بيوتهم المهدمة، يقضون عدة حزنهم المرير حتى يأتي نهار.

* * *

25 آذار 2013

مساء الخير..

اليوم حين تجاوز السرفيس القادم من «جديدة عرطوز» إلى دمشق منطقة السومرية، فتحت امرأة عجوز النافذة وأخرجت يدها وبدأت تلوح. كانت العجوز تجلس في المقعد اليميني في آخر السرفيس، في الستينيات من عمرها وربما أكثر، وجنتاها الممتلئتان تخفيان بعض التجاعيد العميقة، لكن ضوء الشمس الذي كان يتسرب صباحاً من نافذة السرفيس يبرزها بوضوح، تلبس ثوباً أسود وتلف رأسها بغطاء أبيض على طريقة نساء «داريا».

في البداية كانت تعدُّ حبات سبحتها وتبسم دون أن يلحظها أحد، لكن ما إن اقتربت «داريا» من بعيد حتى فتحت النافذة وأخرجت يدها

منها وبدأت تلوّح. كانت مدينة «داريا» قد بدأت تطل بأبنيتها المترامية على أطرافها، وكتل الدخان المتصاعدة بدأت تشكّل غيمة رمادية كبيرة فوقها.

«يا حيف دارنا يا حيف.. يا حيف داريا يا حيف».

التفت كل الركاب إلى الصوت كأنه قادم من مكان بعيد.

«جيت أسألك عن الحبايب.. لقيتك عم تسأليني على اللي غايب».

بدأت المرأة تبكي، ولكنها استمرت بالكلام:

«جبتك زريعة من ساروجة، يا دارنا يا دار..

زرعت فيك مشمشة وشجرة زيتون وورد من كل صنف ولون

ما احتجت حدا فيك يا دار..

كنت ساترتيني وعم تطعميني وعم تسقيني

يا دارنا يا دار.. يا دارنا يا دار..».

مع اقتراب السرفيس أكثر من «داريا» كانت قد انفصلت نهائياً عما حولها، أخرجت يدها الأخرى من النافذة وبدأت تلوّح بيديها الاثنتين معاً.

كان الركاب واجمين صامتين.

لو رأيتم وجوه الرجال في تلك الدقائق لعرفتم المعنى الدقيق للإحساس بالمرارة: تحجّرت حركات عيون بعضهم، واستدار آخرون إلى حيث لا يمكن لأحد رؤية دموعهم. أحدهم قال لها: «صلي على النبي يا حجّة»، آخر قال: «طولي بالك يا حجّة.. الله يفرجها». وآخر قال شيئاً، وأخرى أيضاً. لكن العجز لم تكن تسمعهم. كانت تلوّح وتتنهد، وتتكلم بصوت يرتفع ويرتفع كلما اقتربت «داريا»، لا يقطعه إلا شهيق بكائها حيناً وصوت تنهيدتها حيناً آخر.

وبقيت تلويحها هناك معلقة في الهواء خارج النافذة، حتى إذا

ابتعدت «داريا» واختفت خلف أبنية «المزة» العالية، بقيت السبحة الزرقاء على أرض السرفيس تنتظر يدها مجدداً، وبقيت هي بعيدة ووحيدة... وحيدة تماماً.

* * *

27 آذار 2013

لم أعد قادرة على كتابة شيء.

ما يحدث ليس مجرد مسرحية تستهوي أحداثها الصحفيين ولا فيلماً تشويقياً ولا مجرد حكايات تستهوي هواة المراسلة من أمثالي. الأمر يا صديقتي أصبح قبيحاً جداً وشديد القسوة لدرجة لا يمكن احتمالها. كل يوم أسأل نفسي: أترأه يكون كابوساً ونستيقظ منه؟.. ليته يكون مجرد كابوس طويل.

يوم الثلاثاء الماضي سقطت قذائف كثيرة على دمشق. إحداها سقطت على سيارتنا المركونة إلى جانب الرصيف بقرب مقرّ عملي، فاحترقت بالكامل. احترق شقاء عمرنا أمام عيوننا في لحظة!

«احمدوا الله أنكم لم تكونوا بدخلها». «بلاء أحسن من بلاء». «الله قدير ولطف...». «بالمال ولا بالعيال».. يقول لي الأصدقاء لمواساتي.

كم أخجل من نفسي لأنني حزينة على السيارة. لكننا على ما يبدو ما زلنا بشراً.

* * *

6 نيسان 2013

مرحباً..

اليوم سأحدثك عن أم علي. سكنتُ في بيتها سنتين في دمر البلد في

التسعينيات. أرملة ولها ولدان، كبرا وتزوجا وأنجبا، ومنذ شهر اعتقل ابنها الأكبر علي.

بالأمس سألتني إن كنت مع أن يعتصم في مكان ما في دمشق من أجل أولادهنّ المعتقلين. قالت: «نجمع كل أمهات المعتقلين، أعرف العشرات منهن، ونذهب إلى أي مكان حكومي نسجل احتجاجنا.. نقول لهم إنه هدول أولادنا، وحتى لو كانوا إرهابيين مثل ما عم تقولوا بدنا نتطمّن إنهم بعدهن عايشين.. حاكموهم واسجنوهم مؤبد بأي سجن، بس خلّونا نشوفهن ونطمّن إنه بعدهن عايشين.. نحنا أمهات وقلوبنا مجروحة.. شorch يصير يعني؟ منروح على المصالحة (تقصد وزارة المصالحة الوطنية) أو منروح على الداخلية.. منروح على القصر..».

لم أعرف ماذا أقول لأم علي التي وصلتها إشاعة غير معروفة المصدر أن ابنها قتل في المعتقل.

ذكرت لها حكاية أمهاتنا نحن المعتقلات والمعتقلين السياسيين، كيف اجتمعن في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، وقررن المشي إلى القصر الجمهوري من أجل إطلاق سراح المئات من أبنائهن وبناتهن. ولكن ما الذي حصل يومها؟

«لم يُسمح لهنّ بالاقتراب كثيراً ولا حتى قليلاً.. بل لقد طردن بشكل مهين. كان ذلك في عهد الوالد، ويومذاك لم تكن سلطته في خطر».

«وبعدها...».

«وبعدها تشاركنّ بأمراض الضغط والسكري وبقسمات الوجه اليائسة.. وبقين سنوات وسنوات طوال ينتظرن».

صمتت ثم قالت: «بنقعد على الأرض ومنسكت ومنعمل إضراب.. يعني نحنا نسوان كبار ومعظمنا جدّات.. نموت بالشارع أمام الناس.. خلي العالم يحسّ فينا».

حدّثتها عن اعتصامات النساء في دوما وداريا وجديدة عرطوز، عن المظاهرات السلمية جداً، عن حملة «أوقفوا القتل». حدّثتها عن اعتصام الحريقة، عندما أوسعونا ضرباً ولم يتركونا نكمل قراءة الفاتحة على أرواح شهداء «الحولة». فهي التي اعتقل ابنها قبل شهر، وقتل ابن أخيها وصهرها تحت التعذيب، دخلت الثورة بيتها حديثاً مثل كل نساء بلديتها. هي لا تعرف الكثير عن نضالات الجيل الأول أو الثاني من الثوار والثائرات، لكنها كانت مصرّة أن تتعلم من (كيسها).

هذا الحديث جرى قبل شهر تقريباً مع أم علي، جارتى القديمة، لكن قصة أم علي ذهبت بعد ذلك في منحى آخر، وسوف أكمل لك ما جرى في رسالتي القادمة..

* * *

8 نيسان 2013

مرحباً..

كنت أريد أن أرسل لك تكملة قصة أم علي، لكن الانفجار الذي حصل اليوم في ساحة السبع بحرات جعلني أغيّر رأيي. لكني سأعود إلى (كلامي المباح)، مثل شهرزاد، في رسالتي القادمة.

في مدرستنا معلّمة مؤيدة، ويمكن القول متطرفة جداً. اليوم تناقل زملاؤنا خبر أنها بعد حدوث الانفجار خرجت عن طورها وبدأت تشتم الرئيس وتدعو عليه!

تناقلنا الخبر وعلّقنا بأنه تقدّم واضح في موقفها. بعد قليل صحّحت لنا ناقلة الخبر بأن الأمر كان على العكس، فهي تشتم الرئيس لأنه لم يستعمل أقصى قوته ضد الإرهابيين، وقامت صديقتنا بترديد ما قالتة تماماً مراعية إظهار لهجتها: «بيكفي، حاجة بقى. يقوم يسحقهن

ويخلصنا.. يحطّهن بساحة كلهن.. كلهن.. ويرشّ عليهن أسيد. لازم يجتّهن ويبيدهن ويخلصنا منهن.. شو منتظر؟ ليش ما بيستعمل القنابل الفراغية والعنقودية؟ ليش ما بيستخدم الكيماوي ويخلصنا؟ تعبنا.. حاجة بقى!».

قبل ذلك بيوم نقل لي جاري حديثاً لأحد ضباط الجيش النظامي يقول فيه «إن الرئيس لا يقوم بواجباته كما ينبغي. قلنا له إن الإرهابيين في «داريا» مثلاً لديهم أنفاق تحت الأرض، وأنه لا يمكن التخلص منهم إلا باستخدام قنبلة فراغية. فقال لنا ممنوع استخدام الأسلحة المحرّمة دولياً.. ممنوع اختراق القوانين والشرعية الدولية».

قلت لجارنا: يعني هو حتى الآن لم يخترق القوانين والشرعية الدولية؟ قتل السجناء تحت التعذيب، إعدام الشباب ميدانياً دون محاكمة، إطلاق الصواريخ الباليستية على المدن والقرى.. كل ذلك ألا يخالف الشرعية الدولية؟

لكنه وكعادة المؤيدين أنكر كل هذه الحقائق وطالب بالدليل!

وبمناسبة هذه (الحملة) من أجل الإفراط باستخدام القوة على محطات التلفزة المحلية وبرسائل الموبايل وبآراء المؤيدين والشبيحة، أود أن أروي حكاية كان هناك الكثير من شاهدي العيان عليها: بعد سقوط القذائف بنصف ساعة على البرامكة وصلت مديعتان وأربع كاميرات لأربع قنوات تلفزيونية محلية، يرافقهم عشرات المسلحين. معظمهم لا يلبسون ثياباً عسكرية، ولا يمكن أن تطلق عليهم صفة جنود أو رجال أمن أو لجان شعبية أو رياضيين، بل هم مزيج من كل ذلك. بدأت المديعتان تستجوبان الناس، وتطلبان من المستجوبين أن يذكروا الفاعل (الإرهابيين) أمام الكاميرا، ويشتموه ويطلبوا من الجيش (الحسم). لم يجدوا في المكان من يرضى بقول ذلك على نحو دقيق، فبدأ المرافقون من رجال الأمن يضعون سلاحهم جانباً ويمتّلون «الدور»، فيتحدّثون

عن الحادث الإرهابي الفظيع، ويبكون ويصرخون طالبين من الجيش استخدام (كل القوة) ضد هؤلاء..

الذي حصل يومذاك أن ولدأً مراهقاً كان يمرّ من الطريق، ودفعه فضوله للاقتراب من المصوّر، ثم الله يعلم ما فكر به حتى رسم إشارة لأذني حمار بأصبعيه فوق رأس أحد العاملين بالتصوير، ثم ابتسم الشاب للكاميرا وكأنه يقدم مشهداً كوميدياً. ولكن لسوء حظه رآه شرطي مدني، فبدأ يوبّخه، ولم تمض دقائق حتى جاء رجال الأمن وبدؤوا يصرخون بوجهه: «هات الموبايل ولاااااا»، وصفع أحدهم الولد على وجهه، فحاول الرجال الموجودون التدخل، لكن رجال الأمن نهروهم بعنف وكان الولد يصرخ مستغيثاً: «والله ما عملت شيء».

ثم أمسك أحدهم الموبايل وصرخ بصوت عالٍ: «وكمان حاطط ممنوعات بالموبايل ولاااااااا».

«والله ما معي شيء»، صرخ الولد.

ارتفعت بعض الأصوات الخجولة من جمهور المشاهدين: «اتركوه، لم يفعل شيئاً»، لكن المسلحين صرخوا في وجوههم: «وأنتو شو دخلكن؟». ثم بدؤوا يضربونه جميعهم.

«وكمان مسلح ولاااااااا.. كمان معك سلاح ولااااااا؟!».

ثم رفعوا قميصه وغطوا به وجهه وسحبوه معهم ولم يتوقفوا عن ضربه، وكان الولد يبكي ويصرخ مثل ضفدع مسكين وقد ظهر عري جسده النحيف.

لماذا أروي هذه الحكاية؟ الإعلام السوري تماماً كما المواليين المتطرفين، هم مسؤولون وشركاء في جريمة التحريض على الإفراط في استخدام العنف ضد السوريين الآخرين.

* * *

مساء الخير..

أعود لأكمل لك حكاية أم علي:

جلست أم علي أمامي لتروي لي ما حصل في زيارتها لوزارة المصالحة الوطنية. كان أماننا على الطاولة مجموعة مستلزمات طبية يعرفها كل أهالي المعتقلين الذين خرجوا من المعتقل، وهم ينصحون كل أهالي الباقي من المعتقلين بالاحتفاظ بها في المنزل، فربما خرج أولادهم من المعتقل ليلاً والصيديات مقفلة!

المستلزمات هي عبارة عن: سائل معقم، إبر التهاب، قطن وشاش، مراهم للبثور والجروح، دواء للجرب، شامبو للقمل، وعبوة من أجل التحليل الفوري للبول.

«قال لي: قدمي طلب عليه طابعين. تخيلي.. وقفنا من الثامنة صباحاً ننتظره. وصل الساعة وحدة ونص. لما وصل التف حوله المئات.. لا.. لا.. كانوا بالآلاف.. تقولي الشام كلها كانت هنيك! لما جاء دوري رويت له حكاية ابني. قلت له ابني بريء وما عمل شيء، كان يصرف علي وعلى زوجته وأولاده، كلنا معلقين برقبتة، هو معيلنا الوحيد. بكيت أمامه، لكن الرجل لم يفعل شيئاً! يا دوب قال جملته: «قدمي طلب للمكتب». ما احتملت برودته قلت له: «إن كنت تريد بكل الأحوال أن تقول لنا ذلك، فلماذا لم تقل لموظفيك أن يطلبوا منا كتابة الطلبات ويأخذوها منا بدلاً من انتظارك خمس ساعات لتقولها لنا بنفسك؟ أم أنكم تريدون ثمن الطوابع؟»، لما أنهيت الجملة كان يشير بيده للحاجب لكي يخرجني: «اطلعي برا»، هذا ما قاله. لكنني استمررت بالكلام: «هل هذا ما تريدون أن تجنوه منا؟ خذوا كل مالنا.. خذوا بيتي وأرضي وكل شيء وأعطوني ابني».

دخل رجاله وبدؤوا يجزّوني إلى الخارج. أفلت نفسي من أيديهم ونزلت إلى قدميه. قَبِلت قدميه، نعم.. قَبِلت صباطه، وقلت له: «منشان الله، بيوس رجلك طلعي ابني.. ابني ما عمل شي، والله العظيم ما كان يطلع مظاهرات، ولا حتى يسمع أخبار.. إذا صار له شي بموت». لكن الرجال طلّعونني من المكتب. لم أر وجهه بعدها، ولا أريد أن أراه. بعرف أنني ذليت نفسي، لكن كان عليّ المحاولة. الآن سأجلس بانتظار ولدي، سأتعلم كيف أنظف جروحه وأزيل القمل من شعره وجسمه، وبكرا لما بيطلع سأبيع الأرض والبيت ونسافر كلنا من هنا.. هالبلد ما عاد ينعاش فيها!..

يومذاك، هكذا لَحَّصت أم علي المشكلة.

* * *

10 نيسان 2013

كيفك اليوم؟

نعود إلى حكاية أم علي..

بعد يومين من زيارتها لوزارة المصالحة، خرج أحد الشباب من الفرع نفسه الذي اعتُقل فيه ولدها. لبست حذاءها، ووضعت شالاً على رأسها، وهرعت لسؤاله عن ابنها.

لم تستطع أن تراه من كثرة الناس حوله. كان هناك العشرات من أهالي المعتقلين الذين ازدحم بهم البيت. كثيرون وقفوا خارجاً حتى يأتي دورهم.

«أخي فلان هل رأيته؟»

«ابني هل سمعت عنه شيئاً؟»

«انظر بنّي إلى هذه الصورة، هل رأيت هذا الشاب الصغير هناك؟».

تمدّ يدٌ متعبة الصورة إليه، لكن الشاب الذي خرج قبل ساعات كان بصعوبة يجيب بنعم أو لا. لم يكن قد مضى أكثر من نصف ساعة على دخوله بيته بعد غياب ستة أشهر في المعتقل. لحقه الضيوف إلى أمام باب الحماّم.

كان جارهم الحلاق يجزّ له شعره من الجذور، فيتهاوى الكثير من القمل على البلاط مختلطاً بالشعر الأجد، تزيحه الزوجة بعناية فائقة، ثم تحضر دلوّاً تضع فيه ماءً ومعقماً ثم تضع قدميه المنهكتين فيه وتبدأ مهمتها التي لن تنتهي قبل أسابيع بمعالجة الجروح المتقرحة والجلد المتفسخ. الكثيرون رأوا دموعها تختلط بماء الدلو، لكن أحداً من الأهالي لم يحاول حتى مواساتها، فهي محظوظة اليوم مقارنة بهم!

عندما جاء دور أم علي، كان الشاب قد بدا عليه التعب جلياً، فاقترح أحد العقلاء تركه يرتاح، لكنها سارعت بسؤاله عن ابنها. قال بعد أن نظر ملياً في وجهها القلق: علي منيح. لكن يمكن نقلوه إلى المشفى.

كيف؟ لماذا؟ ومتى؟ أسئلة بقيت معلقة على فمها، أسئلة مؤجلة لم يكن من السهل على الشاب أن يجيب عنها.

انتظرت حتى اليوم التالي ومضت إليه مرة أخرى، ورأت الازدحام نفسه على بابه. هذه المرة قال لها معلومة جديدة، قال إن قدمي علي تؤلمان، ثم أضاف: «يمكن أخذه إلى مستشفى ال(601)».

* * *

11 نيسان 2013

مرحباً..

مستشفى ال(601) هو مستشفى عسكري. امتاز بسمعته الرديئة وأدائه الإجرامي مع المتظاهرين والمعارضين عموماً. سمعت مرة من

أحد الذين اعتقلوا في «الفرقة الرابعة»، وهذه بالطبع أسوأ مكان اعتقال من الممكن أن يتخيله إنسان، قال إنه كان هناك في (حظيرة) الفرقة الرابعة رجل في منتصف الستينيات من عمره نقل إلى ذلك المستشفى، كانت قدمه قد التهبت وبدأت تنزف طوال الوقت. بقي في المستشفى لمدة أسبوع، وعندما عاد إلى (الحظيرة/ المعتقل) تنفس الصعداء وقال: «هنا أهون ألف مرة من هناك»، وروى لهم كيف يتعامل الأطباء كجلاّدين، وكيف تتسلّى الممرضات بنكش جرح المريض بدبابيس شعورهن، وكيف يبصقن على المعتقلين الجرحى كل صباح ومساءً، وكيف كنّ يصرخن في وجوههم: «إرهابي وبدنا نداويك؟ فشرت!».

ورغم كل ذلك قلت لأم علي، عندما سمعت منها أن ابنها قد يكون نقل إلى مستشفى الـ601: «منيح بعده عايش، ادعي له الله يحنّ قلوبهم عليه».

منذ ذلك اليوم وهي لا تنام ولا تأكل فقد دخل الشك قلبها. هل مات؟ أم ما زال حياً؟ أهو في المستشفى؟ من ذلك اليوم، وكل ما تفعله أم علي هو أن تمضي من بيت معتقل إلى آخر تسأل عن ابنها.

أصبح لدى أم علي بنك معلومات عن الفروع وطرق التعذيب والأمراض التي يصاب بها المعتقلون. اليوم عرفت أن ابنها لم يذهب إلى المشفى، كما أن أياً من المعتقلين في ذلك الفرع أو السرية (215) لا يذهب إلى المستشفى، بل يترك ليموت بين رفاقه. تبقى جثته معهم في الغرفة نفسها ليومين أو ثلاثة. كما عرفت اليوم أن ابنها، كما قال لها جارها الشاب، أخرجوه من المهجع! لكن الذي لم يعرفه الشاب، أو ربما عرفه وأخفاه عنها، أنهم قد يكونون نقلوه إلى غرفة (الفصل).

لكن ما هي غرفة الفصل؟!

هي غرفة ينقل إليها (الفاصلين). أي بالعربي: الذين يجتّون مما

يرونه وينفصلون عن الواقع تماماً. هؤلاء يوضعون مع المرضى في المكان نفسه، وهناك قد يتوحّشون ويقتلون بعضهم البعض بسبب ضيق المكان وقلة الطعام.

ملاحظة ضرورية: لم يتم التأكد من هذه المعلومة، رغم أنني حاولت أن أسأل بعض الذين خرجوا من ذلك الفرع تحديداً عنها، إلا أنهم غالباً يتكتمون حول كل ما يعرفونه.

* * *

12 نيسان 2013

مات علي..

مات الشاب (المرضي) حسب وصف والدته. جاء خبر وفاته على ورقة صغيرة بمثابة تبليغ من قيادة الشرطة العسكرية إلى أهله بأن «يراجعوا لأخذ أغراض ابنهم (الموقوف، المتوفي)»، حسب صياغة التبليغ.

مات علي تاركاً وراءه زوجة شابة وطفلين، أكبرهما لم يتجاوز الرابعة، وأماً مكلومة وأخاً وحيداً سيعيش (إن عاش) تحرقه نار الرغبة بالنار من القتل. الشاب الذي يزيد وزنه عن التسعين كيلوغراماً والذي لا (يسعه) باب البيت إن دخل منه، لم يحتمل التعذيب، ولم يحتمل الوقوف أياماً على قدميه.

لا نعرف بالضبط ما الذي حصل هناك في أقبية الفرع 215، وهو بالمناسبة ليس فرعاً بل ثكنة عسكرية، يوضع آلاف المعتقلين فيها في سراديب تحت الأرض، ثم يتركون لمصيرهم، بعد أن يجري تعذيبهم وضربهم على الأماكن القاتلة من أجسادهم، فيموتون ببطء شديد بعد أن يتألموا كثيراً. لن يستلم الأهل جثته، ولن يسمح لهم بفتح بيوتهم

للمعزّين. سيتسلل المعزّون خلسة لكي يواسوا الأم المسكينة التي ترمّلت
بأكراً ونذرت حياتها لتربية ولدٍ بها.

لا عزاء للأمهات، ولا عزاء للسوريين في أبنائهم. ممنوع عليهم
الصراخ أو البكاء والاحتجاج.

قبل أسبوعٍ تماماً من وصول التبليغ المشؤوم، احتجّ أخو أحد المعتقلين
الذي قُتل أيضاً في ذاك الفرع. صرخ حينما وصله الخبر وشتّم باكياً
متألماً. وما كان من حماة الديار إلا أن دخلوا بيته في «دمر»، وأطلقوا
عليه الرصاص، ثم جرّوه أمام الناس، وأخذوا في طريقهم أخاه المراهق
ابن الخامسة عشرة لكي يطمئنوا أنهم علّموا الأسرة وأهل الحي كلهم
كيف يحزنون على أولادهم. لا عزاء لأهل «دمر»، فالعين بصيرة واليد
قصيرة، وما لهم بعد اليوم إلا وضع الملح على جراحهم، والدعاء لله بأن
يرحم من تبقى من أولادهم.

* * *

11 حزيران 2013

مرحباً..

يبدو أن رسائلي بدأت تخرج عن سيطرتي. حكايات المعذّبين
والأمهات المكلومات والشباب الذي ماتوا قبل الآوان والأطفال اليتامى
و... كل ذلك بدأ يرهقني، ولم أعد أستطيع التوقف. أكتب لك لتحملي
حصّتك من أوزاري.. أليس هذا واجب الأصدقاء؟!

أم يحيى امرأة في الستينيات من عمرها. أم لشابين في الجيش
الحر، لا تعرف شيئاً عن مصيرهما حتى الآن. تقول: «الشباب غلطوا
لما دخلوا على الفضل (تعني جديدة الفضل)، كنت أقول لهم: يّمّا انتو
عددكن قليل وما رح تقدروا تواجهوا الجيش وأسلحته.. يا يّمّا نحنا

محاطين بالثكنات العسكرية وبمناطق الموالاة من كل الاتجاهات.. بس هني شباب متحمسين ورؤوسهن حامية. يما رح يحرقوا البلد وأهلها إذا فاتوا.. شو بدنا نسوي؟ نصيبنا هيك».

تقول ابنتها: «نحن لم نغادر البيت أبداً. كانت أُمي تمشي من حارة إلى أخرى لتعرف أخبار الناس. دخلوا من الجهة الشمالية. كان الثوار قد فحّخوا كل المداخل بالألغام، لكن أحد جواسيسهم مشى أمامهم وأخبرهم عن مكان الألغام المزروعة بدقة. الكلب كان يمشي دون أن يغطي وجهه حتى. طوال أشهر وهو يدّعي أنه تائر مثلهم، عرف كل خططهم وأخبر رجال الأمن. ثلاثمئة شاب بأسلحة خفيفة، كيف كان لهم أن يصمدوا؟».

أنظر إلى وجه الأم وهي تقاطع ابنتها، فأرى ملامح جميلة ووجهاً يفيض بالحب: «الإرادة هي الأساس يا بنتي، كانت إرادتهن قوية وكان بإمكانهم أن يصمدوا لو أن الجيش الحر في القنيطرة وخان الشيخ ساندتهم...».

«يحكى أنهم أتاوا.. لكن رجال الأمن لبسوا مثل الجيش الحر واستقبلوهم عند الجهة الجنوبية، وعندما دخلوا أعدموهم ميدانياً».

«لم يأت أحد.. كذب. تركوا الشباب لوحدهم»، ردّت الابنة.

«جارتنا زوجها في الجيش الحر. عندما اقتحموا الحي هرب الرجل مع من استطاع الهرب من الشباب. لكنهم دخلوا منزله وأخذوا الزوجة الشابة. عادت بعد أيام لكن وجهها كان رهيباً. لا يمكن معرفة كم لاقت هذه المرأة من عذاب. روت لنا أنهم أدخلوها إلى الثكنة العسكرية القريبة، هناك قالوا لها أديري وجهك للحائط، وعندما استدارت رأت نتف اللحم البشري تملأ الحائط. أحسّت بالغثيان، لكنها لم تفكر إلا بالرصاصة التي ستخترق رأسها في تلك اللحظة. لم تقل لنا كيف تركوها،

لكنها مكسورة جداً. يقال إنهم اغتصبوها. تناوبوا على اغتصابها طوال أسبوع».

حكايات كثيرة تروىها أم يحيى وبناتها: «كما ترين بيوتنا عشوائية ومتلاصقة، ومعظم أهل المنطقة من أهالي الجولان الذين التصق بهم لقب: النازحين».

«عندما نزلنا من الجولان كنت صغيرة.. أذكر أن أمي كانت تقول إن علينا أن لا نبتعد كثيراً عن قريتنا فسنعود إليها قريباً. سكن بيننا علويون من الساحل، لكنهم غادروا جميعاً مع إعلان الجيش الحر تحرير المكان من النظام. فتحت بين البيوت «مِطْلَكه» من أجل تسهيل هروب الشباب من بيت إلى بيت في حال داهموا الحي. عندما رأها رجال الأمن غضبوا كثيراً منها، وصاروا في كل بيت لا يجدون فيه تلك الحفرة في الحائط يفتحون واحدة. مثلاً انظري إلى باب المطبخ هذا، عندما أرادوا الدخول إليه لم يدخلوا من الباب بل فتحوا ثغرة في الحائط بجانب الباب المفتوح تماماً ليدخلوا منها».

تضحك أم يحيى وهي تشير إلى الثغرة في حائط مطبخها، التي غطّتها بملاءة: «بس مو كل الجيش سيئين، كنت ماشية رايحة طلل على الجيران مرّيت من جنب جندي قال لي: يا يمّا امشي جنب الحيط أحسن ما يطخوكي. كثير حبيته لها لشاب.. تخيلي جاي مع الجيش ليقتلوا ولادي، بس مع هيك لمّا كان ما حدا شايفه نبهني وحسّسني أنه خايف عليي».

«وفيه جارنا فاتوا لعنده ليفتشوا البيت. كان فيه معهن عسكري مسكين قال لجارنا: ممكن الله يخليك إحكي مع زوجتي بموبايلك كلمتين.. الله يخليك. موعد ولادتها كان من يومين، بدي اطمئن عليها. فقام جارنا أعطاه الموبايل، فراح الشاب إلى زاوية واختلس كلمتين، ثم ابتسم وأعاد الموبايل له وكان فرحاً، قال له: إجابني صبي.. منشان الله يا عم لا تقول لزملائي إني حكيت بالموبايل. قال له جارنا: طيب خلّي

الموبايل معك، أو احكي كمان. قال الجندي: «لا.. لا.. منشان الله خدو، والله يبشنتقوني إذا عرفوا...».

حكايأ أم يحيى لا تنتهي. لكن وقتي لم يسمح بسماع المزيد، سأروي لك في رسالة قادمة حكاية أخرى من المكان نفسه.

* * *

12 حزيران 2013

مرحباً..

آية طفلة في الرابعة. لديها ضعف نمو واضح. تقول أمها إنها منذ اجتياح «جديدة الفضل» وهي تقوم من نومها مفزوعة، تصرخ وتقول: «الولد مال على أبوه ومات...».

«وهل رأتهم فعلاً؟».

«نعم.. فلقد ساقوهم إلى بيتها، وأعدموهم هناك أمام أعين الصغيرة».

مرة رأيت صورة لنازي يقتل رجلاً ببندقيته المصوّبة تجاه رأسه باليد اليمنى، ويغلق بيده اليسرى عيني طفل صغير في عمر آية، كي لا يرى مشهد القتل. لم أعد أدري إن كنت تخيلت هذا المشهد بالكامل أم أنه جزء من فيلم أو لوحة لرسام معيّن. إنما الفكرة هنا أنه مهما كانت درجة الإجرام عند أي عسكري، فقد يتمهل عندما يكون هناك طفل يشاهد.

من سوء حظ الصغيرة أن يبتهم على حدود «جديدة الفضل»، في المنطقة التي دخل منها الجيش. عادةً يقوم الجنود بإعدام أعدائهم في ميدان المعركة، لكن هنا ميدان المعركة هو حيّ مكتظ بالبيوت، إذاً

البيوت هي المكان الذي تنفذ فيه الإعدامات، البيوت التي يسكنها نساء وأطفال وشيوخ!

دخل الجنود البيت ومعهم رجلان وطفل مراهق هو ابن أحدهم. قتلوا الأب والرجل الآخر. كان ابنه يشاهد عملية الإعدام، وكانت آية وأمها مرغمتين على المشاهدة. بعد ذلك صوّب أحدهم فوهة بندقيته إلى رأس الطفل وأطلق. ارتمى الطفل على أبيه، نعم.. «مال على أبيه ومات». كانت هذه اللقطة هي ما علق في مخيلة آية، ولن يمحوها شيء. هي اليوم مثل آلاف الأطفال السوريين الذين لم يحالفهم الحظ باللجوء إلى معسكر ما على الحدود، ولا كانت من أسرة ميسورة تستطيع دفع ثمن «الفيزا» إلى بلد خليجي أو أوروبي، إنها مثل آلاف الأطفال تحتاج إلى دعم نفسي، وعلاج طويل لن تجده أبداً اليوم هنا، وربما لن تجده غداً..

* * *

13 حزيران 2013

سأحدثك عن قصة أخرى سمعتها اليوم:

أم محمد (حمودة) امرأة في الثلاثينيات، لديها ولدان أحدهما في العاشرة، والثاني في السادسة من عمره. محمد أو حمودة، الأكبر، طفل عنيد، حسب وصف أمه.

عندما دخل الجنود كان مع الأولاد في الحارة يحاولون معرفة ما يجري وأين وصل الجنود. وكان حمودة يقف في مدخل الحارة معهم متجاهلاً صراخ الأم ومطالبتها إياه بالدخول إلى البيت. هرب الوالد مع من هرب من شباب البلدة عندما اقتحمها الجيش. لم يكن منتسباً للجيش الحر قبل ذلك، لكنه وجد نفسه، والجيش يقتحم البلدة، إما قاتلاً أو مقتولاً، فحمل بندقية ونزل إلى الجهة الجنوبية من أجل مساندة أبناء البلدة من الثوار، لكن الجيش باغتهم ودخل من الجهة الشمالية.

في بحثهم عن الرجال في الحارة الضيقة وجد الجنود النظاميون، مع من كان معهم من الشبيحة ورجال الأمن، حمودة في الزقاق فسألوه عن بيته، وأمروه بأن يمضي بهم إليه. مشى حمودة أمامهم وطرق الباب، ما إن فتحت الأم الباب حتى دفعوه إلى صدر المكان، وأقفلوا الباب وانهالوا عليه بالضرب أمام أمه وأخيه. كانت الأم تحاول جاهدة إبعادهم عنه، ترجوهم أن يتركوه، لكنهم كانوا يدفعونها بعنف.

روت لي: «كنت أقترب من أحذيتهم لأقبلها من أجل أن يتركوه. لم يتركوا لي أي فرصة للاقترب منه لأدفع عنه الضربات بجسدي. أذكر أنني في لحظة ما زحفت على الأرض، وحاولت الوصول إليه من بين ساقي أحدهم، وما إن دخل رأسي بين ساقيه حتى ضغط عليه بعنف. كدت أختنق، وكان يضحك.. ضحك كثيراً كأنه يرى مشهداً كوميدياً. بعد ذلك توقفوا! أوقفونا أنا والصغيرين إلى الحائط، وقالوا لي: اختاري من أولادك واحداً لنقتله، أو نقتلكم جميعاً. قلت له: اقتلوني أنا واتركوا الصغيرين، فلا ذنب لهما. أو اقتلونا جميعاً.

بعد لحظات من الصمت الرهيب ضحكوا وغادروا وتركونا.

كما ترين، لا بدّ أن هذين الطفلين يحتاجان أيضاً إلى دعم نفسي ليتخلصوا من تلك المشاهد. ولكن حتى وإن خضعوا لعلاج نفسي، فهل ستنتهي المشكلة؟ لن تنتهي بتصوّري حتى نخرج من كل هذا. حتى ينتهي هذا العنف، أو حتى يخرجوا من حياتنا، أو نخرج نحن من الحياة، جميعنا دفعة واحدة، نحن - السوريين - جميعاً.

* * *

26 آب 2013

مساء الخير..

يقول إنه في حال وجهت ضربة عسكرية لسورية سوف تكون فينتام

أخرى بالنسبة للأميركيين! مضبوط! كان ممكن أن تكون كذلك لو أن كل الشعب السوري يقف إلى جانبه. السوريون لديهم حساسية من أميركا ومن الغرب. لكن الكيماوي أفقدنا كل حواسنا. وليس فقط الكيماوي، بل الدم والقهر والذل جعلنا نتعلّق بالقشة.

أي فيتنام يا سيادة الرئيس؟ كيف كان يمكن للشعب الفيتنامي أن يلحق الأمريكيين ذلك الدرس التاريخي لو لم يكونوا على قلب رجل واحد؟ كيف يمكن لك أن ترد العدوان الخارجي وبيتك الداخلي مهدم وشعبك محاصر ومعذب ومهان؟

* * *

9 أيلول 2013

مرحباً..

التطورات الجديدة تجعلني كل يوم أكتب شيئاً، ثم أراجع عنه في اليوم التالي. الحقيقة يا صديقتي كلنا خائفون. الأخبار عن ضربة وشيكة لسورية وعدم قدرتنا على تحديد موقف منها يجعل خوفنا يتضخم أكثر. كل الناس خائفون، يتسابقون على شراء المواد التموينية. اشترت ربة خبز اليوم بمئتي ليرة سورية.

بالنسبة لي، وقد سألتني رأيي، أتمنى أن يكون الذي نحن فيه الآن هو قمة الحزن والمرارة واليأس. لكن إحساسي يقول لي إن هناك المزيد بعد.

عيون كثيرة بكت في سورية، وستبكي عيون كثيرة بعد.

سألت أحمد عبر «السكايب»، وهو اليوم متطوع في صفوف الجيش الحرّ في النبك، عن رأيه بالضربة المزمعة فأجاب: «إن حدثت، سنكون نخلصنا من بعض الأسلحة التي كانت حتماً ستستخدم لقتلنا، وإن لم

تحدث فتحن هنا ما زلنا نقوم بما يتوجب علينا. أصلاً نحن لا نستمتع للأخبار، ومحرومون من الكهرباء والتلفزيون، وفي حال وجد نفضل الاستمتاع بمباراة كرة قدم أو بفيلم رومانسي». ينهى أحمد حديثه: «تباً لأميركا وللعالم، يتكلمون كثيراً ولا يفعلون شيئاً. يريدون إضاعة وقتنا بهذه النقاشات التافهة».

صديقتي «سمور» التحقت بزوجها في الغوطة الشرقية منذ أربعة أشهر. كتبت تقول لي: «بعد ليلة الكيماوي صرنا كلما سقط صاروخ نقول: لا تخافوا صاروخ (حاف)، ما فيه كيماوي، ونضحك.. الموت بالكيماوي كثير أصعب من الموت بالطرق الأخرى. رأيت هذا في عيون الأطفال المختقين».

غداً سأنقل لك آراء بعض الذين ألتقيهم أو أتصل بهم، علماً أن التجول ولقاء الأصدقاء أصبح حليماً.

* * *

7 تشرين الأول 2013

مرحباً بعد غياب

كيفك؟ أنا بخير..

أسوأ ما يمكن أن يحدث أن يبدأ الإنسان بتقبّل ما لا يمكن تقبّله، فقط بحكم (العادة)!

بحكم العادة مثلاً، بدأنا نتقبّل منظر المسلحين في الشوارع، باتوا حتى يركبون معنا الحافلات. منذ أيام مثلاً انطلق الباص قبل أن أجلس في مكاني، فترنحت ولم أجد ما أتمسك به سوى بندقية أحدهم التي كان يوقمها متجهة إلى الأعلى. أسوأ ما في الأمر أننا تعودنا سماع أصوات القذائف تنطلق من مكان قريب، وتعودنا أن نتوقع هدفها: جوبر أو

القابون أو برزة أو المعضمية أو داريا.. إلخ، ثم نكمل حديثنا عن طبخة اليوم. اعتدنا سماع قذائف الهاون، التي تنزل قريباً، واعتدنا أن نفرح لأننا لسنا نحن من أصابتنا شظاياها.

أسوأ ما في الأمر أن نتعوّد عدم الحديث في السياسة خلال العمل، لأن الوزير منع الحديث في السياسة، وأن نتعوّد أن تنتهي رواتبنا في بداية الشهر وقد تقلصت قيمتها الشرائية إلى حد «ألزم اللازم». أسوأ شيء يحدث لنا هو اعتيادنا أن نقضي ساعات على الطريق إلى عملنا، تساوي تماماً الساعات التي نقضيها في العمل، وأن نكون ممّتين حينما يتعامل معنا الجندي على الحاجز بقليل من الاحترام.

أسوأ شيء ممكن أن يحدث لي أن أعتاد سماع القصص المرعبة، ولا تأثر كما يلزم، لأنني قررت أن لا أمرض وأن لا يرتفع لدي هرمون الدرق وضغط الدم.

اليوم مثلاً عرفت أن إحدى جاراتي استُدعيت إلى قيادة الشرطة العسكرية في القابون، ليقال لها إن أولادها الثلاثة المعتقلين، أولادها الثلاثة دفعة واحدة أصبحوا في عداد الموتى. الأسباب متعددة: ارتفاع ضغط الدم، جلطة دماغية، جلطة قلبية..! كيف يمكن لإخوة، أكبرهم في الثامنة والعشرين من عمره، أن يموتوا دفعة واحدة بأمراض، تصيب الشيوخ عادة!

أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن أضطر إلى رواية هذه الحكايات من جديد. سنتان وأنا أروي الحكايات نفسها، ربما اعتدت على روايتها كما اعتدت أنت على سماعها، وهذا هو أسوأ ما يمكن أن يحدث!

بكل الأحوال اشتقت لمراسلتك.

سلامات.

* * *

22 تشرين الأول 2013

صديقتي الغالية..

بما أنني أقضي نصف يومي على الطرقات، بسبب الحواجز الكثيرة في دمشق والازدحام الشديد على وسائل النقل، فبإمكاني التقاط صور كثيرة من الشارع. اليوم ظهراً حصلت هذه الحادثة. ما إن توقفت سيارة التاكسي على حاجز قاسيون، ونظر الجندي في هوية السائق حتى قال له: أنت فلسطيني؟

«نعم».

«أخو الشرموطة يعني؟».

صمت السائق ولم يجب. أدخل الجندي رأسه من نافذة السائق ولوّح ببطاقة الهوية أمام وجهه.

كنت أدعو الله أن لا يغضب ويشتم الجندي وقد تخيلت النتيجة، سيخسر الرجل حياته عند أول إشارة احتجاج مهما كان شكله. تنفس الرجل مثل جبل، نعم هيئ لي أنني سمعت ضجيج تنفسه. كان صدره ممتلئاً بالغضب، وكان الجندي يمسك الهوية وينتظر ردة فعله.

«إي ما جاوبتني.. «أخو الشرموطة» يعني؟».

مضت لحظات ثقيلة علينا نحن الاثنين، بعدئذ ضحك الجندي، فظهرت مجموعة أسنان صفراء في فمه. «كيف يمكن لإنسان أن يكون بهذه الوقاحة في هذا الوقت المبكر من الصباح؟»، تساءلت.

تنفست بصوت عالٍ عندما ناول الجندي السائق هويته، أخرج رأسه من النافذة وطرق بيده الثقيلة على سقف السيارة: «امشي».

تناول السائق هويته ثم ضغط على البنزين، وعند أول انعطافة على الطريق قال: «انزلي!».

قلت محاولة أن أواسيه: «مفهوم.. مفهوم يا أخي».

أصرّ: «انزلي». ومضى مسرعاً دون أن ينظر في وجهي أو يطلب الأجرة.

من ذلك اليوم صرت أبحث عنه بين سائقي سيارات الأجرة. هل عاد إلى الجندي لينتقم؟ هل يكون قد ذهب لينتمي إلى إحدى الفصائل المسلحة من المعارضة؟ هل يكون قد غادر البلد سراً على ظهر مركب مهدّد بالغرق؟! أليست كل الاحتمالات مفتوحة أمام هذا الرجل؟ الجندي الغبي ليس استثناءً بل هو «القاعدة». من قال إن الإرهاب ليس متعدد الوجوه؟

القاعدة لهذا اليوم عند الجندي تقول: إن كل الفلسطينيين هم «القاعدة - العدو» التي يحاربها النظام في مخيم اليرموك. لكن قد يكون هذا السائق هرب بأسرته من المخيم إلى قدسيا خوفاً من «عدوهم - القاعدة» ومن «قاعدة تعميم العدو» التي يطبقها النظام وجنوده.

«القاعدة» تقول: كل أهل درعا مدانون حتى يثبت ولاؤهم، وكذلك كل أهل داريا، وكل أهل المعصمية، وكل أهل دوما وحمص ودير الزور وكل وكل... إلى آخر الخارطة السورية العجيبة. والتعميم «قاعدة» الأغبياء.

* * *

3 تشرين الثاني 2013

مساء البرد القارس من دمشق

هذا الشتاء سيكون قاسياً جداً. الجميع يتحدث عن العاصفة الثلجية القادمة ويحضر لها ما تيسر من الحطب والمازوت إن أمكن. كنت سأكتب لك عن ارتفاع سعر المازوت وعدم توفره، وعن البرد كذلك، البرد الذي يبقي ابنتي الصغيرة تسعل منذ أيام. زيارة الطبيب أصبحت عبئاً، وشراء الملابس الدافئة عبئاً أيضاً، والمواصلات عبء أكبر.

ماذا أقول لك عن المواصلات! دمشق اختنقت بالحوازر. لن أشكو.. هذا الحديث تسمعيه في كل مكان، في الباص وفي العمل وفي الشوارع، يوماً ما سيُجَنّ السوريون دفعة واحدة، صار من المعتاد رؤية أشخاص يتحدثون إلى أنفسهم في الشارع.

المرشدة النفسية في المدرسة أصبحت تعاني من ازدحام الحالات وعدم قدرتها على حلّها. قدّمت طلباً للإدارة بأن المدرسة تحتاج إلى أكثر من مرشدة. مرة كنت موجودة بالمصادفة في مكتبها، وسمعت والد تلميذ يحكي لها مشكلة ابنه التي تتلخص بالتالي: يعاني من صداع نصفي شديد، ويصاب بالإغماء عند سماع نشرة الأخبار. لا يريد الذهاب إلى المدرسة، وفي حال غصبه يصاب بنوبة صرع جديّة. يقول إنه أخذ ابنه إلى طبيب أعصاب وطبيب أذن وطبيب أورام والكل أجمع أن الولد معافى تماماً، ولا يشكو من شيء. قال له آخر طبيب زاره بأن يأخذه إلى طبيب نفسي. يقول الأب: صدّقوني عندما نطق الطبيب هذه الكلمة أحسست بأنه صفعني على وجهي. فكّرت.. أستغفر الله، هل يكون ابني مجنوناً؟

قد يكون هناك الكثيرون من أمثال هذه الأب، لكن المرضى النفسيين من الأطفال يتزاحمون على العيادات النفسية. طيبي يقول: «خذوا مهدئات.. المهدئات ومضادات الاكتئاب عواقبها أرحم بكثير من أن تصابوا بالجلطة أو الجنون أو الاكتئاب. على السوريين جميعاً أن يتناولوا مضادات الاكتئاب، إنها وصفة لكل السوريين».

منذ أيام كنت وصديقتي في إحدى دوائر الدولة. رأيت رجلاً مسناً يمشي باكياً بصمت، كانت دموعه تغطي وجهه بسخاء مثل طفل. يقال إن الدموع تنضب مع تقدّم العمر. لا، أقسم بأن الدموع كانت أشبه بسيل على وجهه. لم أقاوم رغبتني في معرفة ما به، مضيت باتجاهه وسألتته: «يا عم شو بك؟ فيني ساعدك بشيء؟»، قال: «لا.. لا.. بس يمكن أنا جنّيت»، ومضى.

جملته القصيرة تلك تسلفت إلى قلبي، وبدأت أبكي مثله تماماً كأنه أصابني بالعدوى. سألتني صديقتي: «ما بك؟»، قلت لها: «ما فيه شي.. بس.. يمكن أنا جنّيت».

الجنون كلمة تعني: سورية..

* * *

10 كانون الأول 2013

اليوم سقطت قذيفة هاون في شارع الصالحية!

قد يكون خبراً عادياً، فالقذائف العشوائية تسقط في كل مكان في دمشق. لكن الصالحية في قلب دمشق، قريبة جداً إلى قصر الروضة الذي يلاصقه مجلس الشعب! باختصار هي منطقة أمنية تغصّ بالجنود. في محل بيع «السندويش» في الصالحية تجمع الجائعون: «سندويشة لو سمحت وكأس عيران». «بم» تسقط القذيفة الأولى، «يا لطيف!». تصدر الكلمات مع مضغ الطعام. يدخل رجل آخر «سندويشتين وكأسين من العيران»، تسقط القذيفة الثانية. لا أحد يهرب ولا أحد يترك طعامه. يبقى صاحب المطعم عينه على الآلة الحاسبة للمال ولا يخطئ.

على شاشة التلفزيون فوق الرؤوس يخرج صوت المذيع ليقول الخبر. القتلى أصبحوا عشرة أما الجرحى فبالعشرات. أصوات سيارات الإسعاف تملأ المكان. لكن طعم السجق مع الحدّ يجعل الأمر أسهل. «اللي بيموت بيرتاح»، تقول امرأة لصديقتها. «أنا ما بخاف غير إنني كون من الجرحى». تكمل سندويشتها وتمضيان، تنظران إلى المحلات التجارية. أصحاب المحلات يقفون أمامها ينظرون إلى سيارات الإسعاف. «لا يمكن سكر المحل»، يقول لجاره: «من غير شي، من الصبح ما لحسنا إصبعتنا». تمر امرأة تسأله عن سعر حذاء، وتفتح فمها مصعوقة بالرقم، تضرب

يدها على رأسها وتمضي. يقول لها بعد أن تبتعد: «والله عرفت إنك ما رح تشتري.. من أول شي كرهتك». سيارات الإسعاف تواصل زعيقها في شوارع دمشق.

بعد ألف يوم على انطلاق «الثورة» كم أصبحنا حياديين تجاه موتنا! وكم ازداد عدد المتطرفين!

قذائف الهاون العمياء، احتفالية الفوضى والفراغ والتطرف.

* * *

11 كانون الأول 2013

مساء الخير..

تتغير الأمور على نحو دراماتيكي حولي. كل شيء يدعو للبكاء، لعله أسوأ أسبوع يمرّ عليّ، وربما على الكثير من أبناء شعبي. عاصفة ثلجية حرمتنا من الكهرباء والمواصلات. انحبسنا في بيوتنا، وحالنا فعلاً أصبحت تدعو للرتاء. حتى الآن لم يعد الأولاد إلى مدارسهم في المنطقة التي أنا فيها، ولم أعد إلى عملي. برد.. صقيع.. الثلج يملأ الشوارع، بياضه حاد ولثيم. بالقرب من بيتي، الذي هو في منطقة آمنة ومعظم أهلها موالون، هناك الكثير من النازحين. وضعهم يُرثى له. الهلال الأحمر يوزّع المعونات حسب الهوية الطائفية، فالشيعة والعلويون وأبناء الأقليات الأخرى لهم الأولوية، أما السنة فهم في المرتبة الثانية. وكيف لن يكون هناك تطرف سنّي والأمور واضحة بهذا الشكل؟!

التطرف أصبح عدواً آخر أشد وأعتى.

بالأمس اعتقلت القوى المتطرفة في دوما (المعارضة) رزان زيتونة، وهي علم من أعلام الثورة، واعتقلت معها سميرة خليل وآخرون من مكتب توثيق انتهاكات حقوق الإنسان في دوما. رزان رفضت الخروج من سورية،

وفضّلت أن تبقى في المناطق المحررة. و«سمور» صديقتي الجميلة، شخص خفيف الظل، يحب الضحك وقول النكات. اعتقلت سابقاً في عام 1987 من قبل النظام، وبقيت أربع سنوات في المعتقل. تعرضت لتعذيب شديد يومذاك، وبقيت صامدة. حافظت في سنوات سجنها على جمال روحها، وعلى مرحها الذي أكسبها الكثير من الأصدقاء. اعتقال سميرة ورزان وباقي الشباب من قبل من يسمّون أنفسهم: معارضة في دوما، وجّه صفقة كبيرة لنا كحالمين بسورية مدنية ديمقراطية. ورغم الغصّة الكبيرة التي أختق بها عندما أتذكر سميرة، وأتذكر أن مصيرها غير معروف حتى الآن، إلا أنني أعتقد بأن النظام هو المسؤول عن إطلاق وحش التطرف!

ماذا أقول الآن وأنا محبطة وتائهة، تائهة تماماً وخائفة. فالدو أصبح بوجوه وأسماء مختلفة!

لأول مرة أفكر في مغادرة البلاد من أجل صغيرتي. لا أريد لهما أن تبدلا اسميهما يوماً ما لكي يرضى تجار الهويات الطائفية والإيديولوجية. فأني مستقبل ينتظرهما بعد اليوم؟

* * *

29 كانون الأول 2013

مرحباً..

ابن صديقتي لم يكن في صفوف الجيش الحرّ بل في صفوف جبهة النصرة. كان يمكن لهذا الخبر أن يجعلني أبتعد عنها لولا أن ابنها هذا قُتل بالأمس في كمين نُصب له ولزملائه. كان علاء إلى وقت قريب في صفوف الجيش الحرّ في وادي بردى، لكن الكثير من شباب الجيش الحرّ هناك انضموا إلى صفوف جبهة النصرة قبل أشهر. كانت بعد كل زيارة لابنها تذكر أمامي تفاصيل كان يجب أن أوليها اهتماماً أكبر. ذكرت

أمامي أكثر من مرة خلال سنة أنهم غاضبون من المجلس العسكري لأنه لا يرسل لهم الذخائر، ولأنه لا يبالي بهم، حتى لم يعتبرهم رسمياً فصيلاً من فصائله، ومع ذلك يأمرهم بعدم القيام بأية عملية كردّ فعل على القصف المتواصل عليهم. وحدثني مرة كيف سرق أحد قادتهم كل رواتبهم وهرب إلى لبنان. كانت وباقي عائلات هؤلاء الشباب يهرّبون لهم الطعام طيلة عام ونصف. كانوا على وشك الموت جوعاً وكان الحل لجميع مشاكلهم في النهاية في يد جبهة النصرة!

لن أتحدث عن كيف ولماذا قُتل علاء، فتلك حكاية طويلة، لكن ما أريد أن أقصّه هنا هو قصة تبنّغها بالخبر. كانت في عيادة طبيب مزدحمة عندما رنّ الهاتف الجوال: زوجة ابنها تقول لها اتصلي بعلاء هناك من يستخدم هاتفه.

لم تبال كثيراً حينذاك بالموضوع، خاصة أن الممرضة كانت تنادي على اسمها لكي تجهّز نفسها للدخول إلى غرفة الطبيب. لكن كنتها ألحّت عليها في مكالمة ثانية وبدأ أن الأمر خطير. طلبت رقم ابنها الملاحق فردّ صوت غريب من الجهة الأخرى، فقالت:

- هذا موبایل ابني.. وینه؟

- هذا ابنك؟

- هذا موبایله مین عم یحكي؟.. وینه ابني؟

- بقديش بتشتريه لابنك؟

- بكل شي بدك اياه بس عطيني اياه احكي معه..

- ما فيكي تحكي معه لأنه فطس.

- لا تقولها بترجاك.

- ما قلت لي.. بقديش بتشتريه؟

- كل ما أملك بس خليني إحكي معه.. الله يخليك!

- قلت لك هوي جثة.. حدا بيحكي مع جثة؟.. بقديش بتشتري جثته؟
سقطت أم علاء عميقاً في الأرض، وصوتها علا ليملاً البناء. تجمّع
حولها المرضى والطبيب، انتبهت أخيراً إلى وجوههم.. كانوا ييكون!
أقفلت الهاتف، ولملمت نفسها ووقفت. خرجت وسط كلمات مثل:
«اللّٰه يصبرك»، «اللّٰه يكون معك».. مشت في الشارع، ثم تذكّرت الهاتف.
ردّ عليها الصوت الغريب نفسه: أرجوك أريد أن أتكلّم معه.
- يا مخبولة كيف بدك تحكي مع جثة؟ هذا هوي هون قدام رجلي..
إذا بدك اياه تعي اشتري الجثة.
سكتت أم علاء ثم قالت: إن كان حقاً مات فهو عند اللّٰه شهيد.. وأما
الجثة فافعل بها ما شئت لأن روحه وهي الأهم قد أصبحت في السماء.
- أي سماء يا امرأة؟ ابنك فطس لأنه إرهابي.
- ابني شهيد..
- ابنك فطيسة.. وليس شهيد.
- ابني شهيد.. لولولوووويششش..
وبدأت تزغرد! تزغرد بصوت مبجوح، والرجل من الجهة الأخرى
يشتمها، والناس في الشارع تنظر إليها وكأنها مجنونة.. ابني شهيد،
وتزغرد. ثم ركبت سيارة وعادت إلى بيتها.
سألتها: لماذا زغردت؟ فقالت: «كنت بدي أقهره متل ما قهرني»..
* * *

20 كانون الثاني 2014

مرحباً..

مصالحات.. ووزارة مصالحة.. كلمات تتردد كثيراً هذه الأيام.

على باب مكتب «علي حيدر» يقف مئات السوريين يوماً: نساء من مختلف الأعمار يسعون لإطلاق سراح الزوج أو الابن أو الحفيد، أو لأخذ جثته ودفنه كما يليق به، أو للحصول على أشياء كانت معه عند اعتقاله وقبل موته. تجد رجالاً عجائز يتكئون على أحفادهم الصغار الذين مضت شهور على اختفاء آبائهم أو أمهاتهم. تجد على بابه «سورية»، حسب وصف إحداهن. ويشهد الكثير من الزوار أن الوزير رجل محترم ولبق يبذل جهده لمقابلة الجميع وإبداء تعاطفه مع همومهم وإعطائهم الكثير من الأمل والوعود.

«الغريق يتعلّق بقشة»، هذا ما قالت إيمان قبل أن تذهب لرؤية الرجل. بقيت ستّ ساعات بانتظار دورها لمقابلته، وحين جاء دورها حدّثته عن اعتقال أبنائها الثلاثة من البيت، وعن الورقة التي وصلت بها بأنهم ماتوا في المعتقل! لكنها اليوم لم تأت من أجلهم، بل من أجل ابنها الرابع المتبقي لها. اعتقلوه في عزاء إخوته، ولا تعرف عنه شيئاً. حكّت له كيف انحنت وقبّلت قدم الضابط الذي اعتقله، قبّلتها من أعماق قلبها، ورجته أن يتركها لها فهو كل ما تبقى، لكنه تجاهل توسلاتها ببرودة قاتلة.

تقول إن الوزير دمت عيناه عندما سمع قصتها. وعدها بالمساعدة وقال لها أن تكتب طلباً لوزير المصالحة (له) تحكي فيه ما قالت شفاهية. بعد ذلك أصبحت الأم المكلومة زائرة يومية لوزارة المصالحة الوطنية طيلة فترة الدوام الرسمي. تقف عند باب الوزير لدى خروجه ودخوله لتسأله: هل تذكرني؟، فيبتسم الرجل وتبعث ابتسامته الأمل في قلبها.

واليوم كل أهالي «دمر» يعرفون أن ابنها الرابع قُتل أيضاً، منذ اليوم الأول للاعتقال، لكن أحداً لم يتجرأ على قول الحقيقة لها.

اليوم لا تزال إيمان تمضي نصف نهارها بانتظار رؤية الوزير لتسأله: «تذكرني؟»، ويهز رأسه وابتسم.

في وقت آخر، وعلى بعد أمتار من حاجز «السبينة» وقف مندوب وزارة المصالحة الوطنية بانتظار «حسان حسان». كان من المفترض أن يستلم الرجل حساناً بعد أن جرت المفاوضات لتسوية وضعه. كان أقرباء حسان قد سمعوا عن المبادرة التي أطلقها علي حيدر، وزير المصالحة الوطنية، في شهر أيلول من هذا العام من أجل تسوية أوضاع المدنيين في مخيم اليرموك المحاصر، خاصة أن يديّ ابنهم (لم تتلوثا بالدماء)، لكن أجهزة الأمن لا تأتمر بأمر وزير، خاصة في وزارة استحدثت لوظيفة محددة هي المصالحة، فالمصالحة لا تكون بين فرد وجهاز، بل بين الأفراد في ما بينهم.

قُتل حسان بعد أسبوع واحد من اعتقاله، وتم تبليغ عائلته بتاريخ 17 كانون الأول 2013 بأنه توفي في المعتقل.

أما زاهية فلم تشاهد الفيديو الذي أظهر علي حيدر جالساً يتحدث إلى علي الكيلاني، المسؤول عن مجزرة بانياس، ويثني على جهوده «الوطنية»، بعيداً عن المصالحة هذه المرة.

زاهية أو «أم الثوار»، وقد تحدّثت عنها في رسالة سابقة، اعتقلت في بداية عام 2012 وأمضت ثلاثة أشهر في أحد الفروع الأمنية. بعد إطلاق سراحها بشهر وصلها أن فرعاً آخر يطلب اعتقالها، فهربت إلى وادي بردى المحرر وعاشت مع أبناء حيّها من شباب الجيش الحر. طالبت إقامتها هناك، وأنّهكت المرأة الستينية التي داهمها المرض، فاضطرت لأن تطلب من ابنتها أن تذهب لزيارة الوزير للتفاوض من أجل تسوية وضعها لكي تعود إلى بيتها. عادت المرأة إلى بيتها بعد أن سجّلت مقابلة على القناة الفضائية السورية. مقابلة تخجل ويخجل أقرباؤها من محتواها، وسوف تُشعر الشباب، التي كانت لوقت طويل «أمهم»، بأنهم أصبحوا بعد اليوم أيتاماً.

إن سألت آلاف السوريين الذين قدّموا طلبات لوزارة المصالحة

الوطنية عما إن كانت طلباتهم أتت بنتيجة، فلن تجد من يجيب بنعم. إلا أنهم سيقفون يمشون وقتهم على أبواب الوزير، لا شيء بل لأن «الفريق يتعلّق بقشة» كما يقولون، حتى وإن كانت القشة بيد رجل يثني على القاتل ويبتسم للقتيل.

ملاحظة: بعد خروجها مرغمة في مسيرة تأييد في شوارع دمر، توفيت «أم الثوار: زاهية جوخدار» في الصباح التالي، إثر إصابتها بجلطة دماغية. ومن الجدير بالذكر أن كل أهل دمر حضروا جنازتها، وحتى شباب الجيش الحرّ أو الذين انضموا في ما بعد لجبهة النصرة من أبناء دمر، والذين كانوا غاضبين جداً من تصرفها، كتبوا في صفحاتهم على «الفيسبوك»: «استشهدت أم الثوار».

* * *

26 كانون الثاني 2014

مرحباً من قدسيا..

لم أزر قدسيا منذ أشهر، لكن أصوات المتظاهرين في الساحة تشعّرنني بأن الزمن يمكن أن يعود للوراء. هتافات سمعتها من قبل، لكن شيئاً تغيّر! الشعارات السابقة طُعمت ببعض الأناشيد الدينية كأنها تخرج من الجامع. الكتابات على الجدران تبدّلت كذلك، فهي تدعو إلى الصلاة وطاعة الله. صور الكثير من الشهداء من أبناء البلدة أيضاً ملأت الجدران. كنت أبحث عن كلمة «حرية» على الجدران التي طليت بالكلس الأبيض بعد آخر اقتحام للجيش، وذلك لإزالة ألوان علم الثورة وشعارات الثورة الأخرى تطبيقاً لشروط اتفاقية الهدنة حينذاك.

في جولة بحثي عن الشعارات القديمة وجدت أخيراً كلمة «حرية»، صغيرة لكن واضحة، على جدار في إحدى زوايا الحارات. ثم كلمة

ثانية وثالثة.. أيّ إحساس بالسعادة ينتج عن تلاقي حروف هذه الكلمة؟
كلمة كلّفَتنا مئات آلاف السوريين حتى الآن.

في ساحة قدسيا وفي شوارعها ستجد الكثير من الأطفال، سيطلق عليهم سكان المنطقة الأصليون «السكان الجدد»، إنهم نازحون من مخيم اليرموك. أطفال حفاة متّسخون يشحذون منك مبلغاً مقابل قطعة علكة رخيصة سوف تتركها لهم، مراهقون ينتظرون عملاً يأتيهم من رجل يركب سيارة ويريد تحميل أغراض بيته الثقيلة إلى طوابق عليا، يتسابقون لإرضائه، ويتنافسون في تخفيض أجرهم. رجال ملتحون ازدادوا تشدداً وكرهاً لأيّ مختلف. لكن أصوات المظاهرات من جديد أيقظت لدي الإحساس بالتعاطف مجدداً معهم: «إنهم من يبقوننا أحياء وخارج المعتقلات حتى الآن»، فكّرت. فما داموا يهدّدون النظام، وما دام النظام منشغلاً بهم، فلن يتفرغ للمتأقفين أمثالنا، غواة الكلام وساردي الحكايا. ومن قال إن التطرف مثل الفطر ينبت كيفما شاء المطر؟ التطرف جذوره القمع والعنف والظلم والجوع وقلة الحيلة، وهذه متوفر بكثرة في سورية الأسد.

* * *

رسالة أخيرة من سورية

في 28 نيسان 2014

مرحباً..

وصل بنا السرفيس القادم من جديدة عرطوز إلى ساحة الأمويين في طريقه إلى ساحة الجمارك، ومن ثم إلى «البرامكة» حيث محطته الأخيرة. كان الركاب صامتين طوال الطريق وهم يستمعون إلى الأغاني. مطرب جديد يغني أغنية رومانسية يقول فيها لحبيبتة: «إنت مانك

عادية.. هيك المنطق بيقول لي.. مثل الطلقة الروسية.. إذا ما قتلتي
بتشلي..!». بعدها مباشرةً يصدح صوت «علي الديك» بأغنية جديدة
تتغنى بالرئيس وانتصاراته، كُتبت ولُحنت على عجل.

«الفن في زمن الحرب يكون رديئاً، هكذا يقول المنطق»، فكّرت بيني
وبين نفسي.

عند وصولنا أمام مبنى «هيئة الإذاعة والتلفزيون» صدح أحدهم
بأغنية «عجل نصرك يا بشار».

في الشهر الأخير أينما ذهبت أسمع هذه الأغنية! «لا بدّ أن سائقي
السرافيس يتزودون بهذه الأغنية صباحاً كما يتزودون بالوقود»، قلت في
نفسي. المهم لدى وصولنا الساحة وقف شباب وصبايا أمام السرفيس،
فأجبروا السائق على التوقف، ثم سمعناهم يصرخون بالسائق: «عليّ
الصوت.. عليّ الصوت.. عجل نصرك يا بشار»، ردّدوا وردد معهم
السائق. فتحوا الباب وقالوا للركاب الذكور: «انزلوا».

نزل الرجال من السرفيس، وكان بينهم رجل كهل. ثم قادهم
أحد المراهقين إلى حلقة الدبكة، وبدؤوا بتنظيم خطواتهم على إيقاع
الأغنية، لكنهم لم ينجحوا فالكثيرون لا يعرفون «الدبكة». وكاد الرجل
العجوز يقع أكثر من مرة وهو يحاول تنظيم خطواته. مضت بضعة دقائق
ظننتها ساعة، وأنا أتأمل المشهد وأشكر ربي لأنه خلقني امرأة، فعلى
الأقل لم أجبر على الرقص في الشارع.. كان مشهداً مهيناً جداً.

بعد أن أنهى (الدبكة) دورتين حول قارع الطبل، قال لهم أحد
الشباب وكان يلفّ جسده بالعلم: «شكراً يا شباب.. الله يعطيكم العافية!».
صعد الرجال إلى السرفيس والعرق يتصبب على وجوههم، ثم عادوا إلى
صمتهم كأن شيئاً لم يحدث.

في مؤخرة المشهد كانت صور «الرئيس» ترتفع في الساحة المليئة

بالجند، وكانت شاشة التلفزيون السوري الكبيرة تبث خبراً عاجلاً يقول:
«إن السيد الرئيس تقدّم إلى المحكمة الدستورية العليا بطلب ترشيحه
لولاية جديدة»!

* * *

صدر من سلسلة «شهادات سورية»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدّد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفيه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو - متوسطة لدعم المدافعين عن حقوق

الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.

تقدّم الكاتبة في هذا النص الصادق الشفاف
شهادات شبه يومية تمتد من آذار 2012 حتى
نيسان 2014. ومن خلال حكاياتها المبتوثة
إلى صديقتها البعيدة ترسم صورة نموذجية
للسوريين في مرحلة تحوّل ثورتهم لتصل إلى
حال من الفوضى حتى بتنا "ببساطة لا نعرف
من القاتل ومن القتل". مرحلة يتبادل فيها
السوريون "العنف والكراهية والموت، كما
يتبادلون الحب والتعاطف والملاجئ والبيوت...
وكما يتبادلون الأغذية والثياب والطعام....".

